



The Practical and Teleological Dimensions of Sufi Spirituality in 'Ajībah: A Sufi-Philosophical Study on Human Formation

Dr. Amal Mohamed Amer *

Department of Philosophy, Faculty of Arts, Misrata University, Misrata, Libya

البُعدُ العمليُّ والمقاصديُّ للروحانيَّة الصُوفيَّة عندَ عَجِيبَة: دراسةٌ صُوفيَّة فلسفيَّة في بناء الإنسان

د. امال محمد عامر *

قسم الفلسفة - كلية الآداب جامعة مصراتة، مصراتة، ليبيا

*Corresponding author: Am_libya_al@yahoo.com

Received: July 03, 2026

Accepted: August 02, 2026

Published: October 01, 2026



Copyright: © 2026 by the authors. This article is an open-access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (<https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>).

Abstract:

This study offers an analytical reading of the intellectual and spiritual legacy of Aḥmad Ibn 'Ajība. Rather than limiting itself to a descriptive account of Sufi concepts, it seeks to explore their philosophical and maqāṣid-oriented foundations and to elucidate their role in human formation, the guidance of conduct, and the consolidation of ethical values.

The significance of the study lies in highlighting the practical character of Sufi spirituality and demonstrating that, in Ibn 'Ajība's thought, Sufism does not represent a withdrawal from reality; rather, it constitutes a project for the ethical and spiritual reform of both the individual and society. From this perspective, the study opens new horizons for contemporary philosophical and Islamic scholarship.

Keywords: Spirituality; Spiritual Purification (Tazkiyah); Maqāṣid-Oriented Approach

المُلخَص

يقدم هذا البحث قراءة تحليلية لثراث أحمد بن عَجِيبَة، لا تقتف عندَ وصفِ المُقولاتِ الصُوفيَّة، بل تسعى إلى استكشاف أسسها الفلسفيَّة والمقاصديَّة، وبيان وظيفتها في بناء الإنسان وتوجيه السلوك وترسيخ القيم. وتُتجلى أهميَّة الدراسة في أنَّها تُسهم في إبراز الطابع العملي للروحانيَّة الصُوفيَّة، وتُبيِّن أنَّ التصوُّف عند ابن عَجِيبَة ليس انسحاباً من الواقع، بل مشروعٌ لإصلاح الإنسان والمُجتمع ممَّا يفتح أفاقاً جديدةً للدراسات الفلسفيَّة والإسلاميَّة المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: الروحية، التزكية، المقاصدي

المُقَدِّمة

يُعدُّ التصوُّف الإسلاميُّ من أغنى التجارب الفكرية والروحيَّة التي أنتجتها الحضارة الإسلاميَّة، إذ لم يقتصر على كونه مسلماً تعبدياً يهدف إلى تركية النفس وتهذيبها، بل تحوَّل إلى منظومة معرفيَّة وأخلاقيَّة ووجوديَّة تُقدِّم تصوُّراً متكاملًا للإنسان والعالم والعلاقة بالله تعالى. ومن هنا أصبح التصوُّف أحد الروافد الرئيسيَّة للفلسفة الإسلاميَّة في بُعدها الإنساني، لأنَّه لا ينظر إلى الإنسان بوصفه جسداً وعقلاً فقط بل ينظر إليه بوصفه كائناً روحياً يسعى إلى التحقُّق بمعنَى العبوديَّة وتكريس القيم في الواقع.

وَقَدْ أَفْرَزَ الثَّرَاثُ الصُّوفِيُّ أَعْلَامًا كِبَارًا أَسْهَمُوا فِي تَأْسِيسِ هَذَا الْمَسَارِ، وَيَأْتِي أَحْمَدُ بْنُ عَجِيبَةَ الْحَسَنِيُّ (ت: 1224هـ) فِي مَقَدِّمَتِهِمْ إِذْ تَمَيَّزَ مَشْرُوعُهُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ، وَبَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَبَيْنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّرْبِيَةِ، وَبَيْنَ الْمَعْرِفَةِ النَّظَرِيَّةِ وَالسُّلُوكِ الْعَمَلِيِّ، حَتَّى غَدَا فِكْرُهُ مَشْرُوعًا مُتَكَامِلًا لِبِنَاءِ الْإِنْسَانِ الرُّوحِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ. وَلَعَلَّ أَمْرًا مَا يُمَيِّزُ ابْنَ عَجِيبَةَ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ الرُّوحَانِيَّةَ مَجَالًا لِلانْعِرَالِ عَنِ الْوَاقِعِ، وَلَا دَعْوَةً إِلَى التَّخَلِّيِ عَنْ مَسْئُولِيَّاتِ الْإِنْسَانِ، بَلْ نَظَرَ إِلَيْهَا عَلَى أَنَّهَا طَاقَةٌ تُعِيدُ تَشَكِيلَ الْوَعْيِ، وَتُقَوِّمُ السُّلُوكَ، وَتُرْكَبُ الْأَخْلَاقَ، وَتُوجِّهُ الْعَمَلَ نَحْوَ تَحْقِيقِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَعِمَارَةِ الْأَرْضِ، وَهُوَ مَا يَجْعَلُ الرُّوحَانِيَّةَ عِنْدَهُ بُعْدًا عَمَلِيًّا وَحَضَارِيًّا، لَا يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ التَّجَرُّبَةِ الدَّائِيَّةِ.

أهمية البحث:

تَسَعَى الدِّرَاسَةُ إِلَى تَجَاوُزِ الْقِرَاءَاتِ الْوَصْفِيَّةِ الَّتِي انشَغَلَتْ بِالتَّرْجَمَةِ لِابْنِ عَجِيبَةَ أَوْ عَرْضِ مَقُولَاتِهِ، إِلَى قِرَاءَةٍ فُلْسَفِيَّةٍ تَحْلِيلِيَّةٍ تَكْشِفُ الْبُنْيَةَ الْمَعْرِفِيَّةَ لِرُوحَانِيَّتِهِ، وَتُبَيِّنُ مَرْجِعِيَّاتِهَا الشَّرْعِيَّةَ وَالْمَقَاصِدِيَّةَ، وَتُظْهِرُ أَثَرَهَا فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَإِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ، مَعَ رِبْطِ ذَلِكَ بِالتَّحْدِيَّاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ الَّتِي يُوَاجِهُهَا الْإِنْسَانُ الْمُعَاصِرُ.

وَتَتَّبِعُ أَهْمِيَّةُ هَذَا الْبَحْثِ مِنْ كَوْنِهِ يَفْتَحُ قِرَاءَةً تَحْلِيلِيَّةً لِثَرَاثِ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيبَةَ، لَا تَقِفُ عِنْدَ وَصْفِ الْمَقُولَاتِ الصُّوفِيَّةِ، بَلْ تَسَعَى إِلَى اسْتِكْشَافِ أَسْهَائِهَا الْفُلْسَفِيَّةِ وَالْمَقَاصِدِيَّةِ، وَبَيَانِ وَطِيفَتِهَا فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَتَوْجِيهِ السُّلُوكِ وَتَرْسِيخِ الْقِيَمِ.

وَتَتَجَلَّى أَهْمِيَّةُ الدِّرَاسَةِ فِي أَنَّهَا تُسَهِّمُ فِي إِبْرَازِ الطَّابَعِ الْعَمَلِيِّ لِلرُّوحَانِيَّةِ الصُّوفِيَّةِ، وَتُبَيِّنُ أَنَّ التَّصَوُّفَ عِنْدَ ابْنِ عَجِيبَةَ لَيْسَ انْسِحَابًا مِنَ الْوَاقِعِ، بَلْ مَشْرُوعٌ لِإِصْلَاحِ الْإِنْسَانِ وَالْمُجْتَمَعِ، مِمَّا يَفْتَحُ آفَاقًا جَدِيدَةً لِلدِّرَاسَاتِ الْفُلْسَفِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ. أَهْدَافُ الْبَحْثِ: يَهْدَفُ هَذَا الْبَحْثُ إِلَى:

1. بَيَانُ مَفْهُومِ الرُّوحَانِيَّةِ عِنْدَ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيبَةَ.
2. تَحْلِيلُ الْبُعْدِ الْعَمَلِيِّ لِلتَّصَوُّفِ فِي مُؤَلَّفَاتِهِ.
3. اسْتِكْشَافُ الْأُسُسِ الْفُلْسَفِيَّةِ وَالْمَعْرِفِيَّةِ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا فِكْرُهُ.
4. الْكَشْفُ عَنِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الرُّوحَانِيَّةِ وَمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ.
5. تَقْوِيمُ الْقِيَمَةِ الْحَضَارِيَّةِ لِفِكْرِ ابْنِ عَجِيبَةَ وَإِمْكَانِ الْإِفَادَةِ مِنْهُ فِي مُعَالَجَةِ قَضَايَا الْإِنْسَانِ الْمُعَاصِرِ.

إشكالية البحث:

يُعَدُّ التَّصَوُّفُ الْإِسْلَامِيُّ مِنَ الظُّوَاهِرِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي حَظِيَّتْ بِاهْتِمَامٍ وَاسِعٍ فِي الدِّرَاسَاتِ الْفُلْسَفِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ؛ لِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ أُبْعَادٍ مَعْرِفِيَّةٍ وَتَرْبَوِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ، غَيْرَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الدِّرَاسَاتِ الَّتِي تَنَاوَلَتْ ثَرَاثَ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيبَةَ انْصَرَفَتْ إِلَى عَرْضِ مَعَالِمِ تَجَرُّبَتِهِ الصُّوفِيَّةِ وَشَرَحِ مَصْطَلَحَاتِهَا، دُونَ النَّقَازِ إِلَى بِنْيَتِهَا الْفُلْسَفِيَّةِ، أَوْ الْكَشْفِ عَنِ الْأُسُسِ الْمَقَاصِدِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا، وَدُونَ بَيَانِ أَثَرِهَا الْعَمَلِيِّ فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَإِصْلَاحِ الْوَاقِعِ. وَمِنْ هُنَا تَنَبُّقُ إِشْكَالِيَّةِ هَذَا الْبَحْثِ مِنْ مُحَاوَلَةِ الْإِجَابَةِ عَنِ السُّؤَالِ الرَّئِيسِ الْآتِي:

- كَيْفَ تَجَلَّى الْبُعْدُ الْعَمَلِيُّ لِلرُّوحَانِيَّةِ الصُّوفِيَّةِ عِنْدَ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيبَةَ، وَإِلَى أَيِّ مَدَى أَسْهَمَتْ رُؤْيَتُهُ فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ عَلَى أُسُسِ أَخْلَاقِيَّةٍ وَمَعْرِفِيَّةٍ وَمَقَاصِدِيَّةٍ، بِمَا يَجْعَلُ مِنَ الرُّوحَانِيَّةِ مَشْرُوعًا عَمَلِيًّا لِإِصْلَاحِ الْفَرْدِيِّ وَالْحَضَارِيِّ؟
وَيَفْرَغُ عَنِ هَذَا السُّؤَالِ الرَّئِيسِ جُمْلَةٌ مِنَ التَّسْأُولَاتِ الْفَرْعِيَّةِ، مِنْ أَهْمِهَا:

1. مَا الْمَقْصُودُ بِالرُّوحَانِيَّةِ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ، وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّدْبِينِ الشَّكْلِيِّ أَوْ التَّجَرُّبَةِ الْوُجْدَانِيَّةِ الْمَحْضَةِ؟
2. مَا الْأُسُسُ الْفُلْسَفِيَّةُ وَالْمَعْرِفِيَّةُ الَّتِي انْطَلَقَ مِنْهَا أَحْمَدُ بْنُ عَجِيبَةَ فِي بِنَاءِ مَشْرُوعِهِ الرُّوحِيِّ؟
3. كَيْفَ وَظَّفَ ابْنُ عَجِيبَةَ الْعِبَادَاتِ وَالتَّزْكِيَّةَ وَالْأَخْلَاقَ لِتَكُونُ وَسَائِلَ عَمَلِيَّةٍ لِبِنَاءِ الْإِنْسَانِ؟

4. مَا الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الرُّوحَانِيَّةِ الصُّوفِيَّةِ وَمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ فِي فِكْرِ ابْنِ عَجِيبَةَ؟
 5. إِلَى أَيِّ حَدٍّ يُمَكِّنُ أَنْ تُسَهَّمُ رُؤْيَا ابْنِ عَجِيبَةَ فِي مُعَالَجَةِ أَرْمَةِ الْإِنْسَانِ الْمُعَاصِرِ، وَمَا يَعِيشُهُ مِنْ اغْتِرَابٍ رُوحِيٍّ وَفَقْدَانٍ لِّلْمَعْنَى؟
 وَتَقْتَرِضُ الدِّرَاسَةُ أَنَّ الرُّوحَانِيَّةَ عِنْدَ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيبَةَ لَيْسَتْ تَجْرِبَةً ذَاتِيَّةً مَعْرُولَةً عَنِ الْوَاقِعِ، بَلْ هِيَ مَنْظُومَةٌ عَمَلِيَّةٌ تُعِيدُ بِنَاءَ الْإِنْسَانِ وَتُوجِّهُ سُلُوكَهُ فِي ضَوْءِ الْفَيِّمِ الْإِيمَانِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ وَمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، وَتُمَثِّلُ بِذَلِكَ رُؤْيَا فُلْسُفِيَّةً مُتَكَامِلَةً لِلْإِصْلَاحِ الْإِنْسَانِي وَالْحَضَارِيِّ.
 وَيَسْعَى هَذَا الْبَحْثُ إِلَى الْإِجَابَةِ عَنِ التَّسْأُولِ الرَّئِيسِ الْآتِي: كَيْفَ أَسَّسَ أَحْمَدُ بْنُ عَجِيبَةَ لِرُؤْيَا رُوحِيَّةٍ ذَاتِ بُعْدٍ عَمَلِيٍّ، وَمَا الْأُسُ الْفُلْسُفِيَّةُ وَالصُّوفِيَّةُ وَالْمَقَاصِدِيَّةُ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا، وَإِلَى أَيِّ مَدَى يُمَكِّنُ أَنْ تُسَهَّمُ فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَتَجْدِيدِ الْوَعْيِ الْحَضَارِيِّ؟
 وَيَفَرَّغُ عَنِ هَذَا السُّؤَالِ الرَّئِيسِ التَّسْأُولَاتُ الْآتِيَّةُ:

1. مَا مَفْهُومُ الرُّوحَانِيَّةِ فِي فِكْرِ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيبَةَ، وَمَا مَرْجِعِيَّاتُهَا الشَّرْعِيَّةُ وَالصُّوفِيَّةُ؟
2. كَيْفَ تَحَوَّلَتِ الْعِبَادَاتُ وَالتَّزَكِّيَّةُ عِنْدَ ابْنِ عَجِيبَةَ إِلَى وَسَائِلٍ لِبِنَاءِ الْإِنْسَانِ، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ أَعْمَالٍ شَعَائِرِيَّةٍ؟
3. مَا الْعَلَاقَةُ بَيْنَ الرُّوحَانِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ وَمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ فِي مَشْرُوعِ ابْنِ عَجِيبَةَ؟
4. مَا الْبِنْيَةُ الْمَعْرِفِيَّةُ وَالْوُجُودِيَّةُ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا رُؤْيَا لِّلْإِنْسَانِ؟
5. مَا الْقِيَمَةُ الْفُلْسُفِيَّةُ وَالْحَضَارِيَّةُ لِرُوحَانِيَّةِ ابْنِ عَجِيبَةَ فِي مُوَاجَهَةِ أَرْمَاتِ الْإِنْسَانِ الْمُعَاصِرِ؟

مَنْهَجُ الْبَحْثِ:

اعْتَمَدَتِ الدِّرَاسَةُ عَلَى مَنْهَجٍ مُتَعَدِّدِ الْأَبْعَادِ؛ إِذْ جُمِعَ بَيْنَ الْمَنْهَجِ الْاسْتِقْرَائِيِّ فِي تَتَبُّعِ النُّصُوصِ الْأَصْلِيَّةِ مِنْ مُؤَلَّفَاتِ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيبَةَ، وَالْمَنْهَجِ التَّحْلِيلِيِّ فِي اسْتِنْطَاقِ دَلَالَاتِهَا وَبِنْيَتِهَا الْفِكْرِيَّةِ، وَالْمَنْهَجِ الْفُلْسُفِيِّ فِي تَفْسِيرِ مَقُولَاتِهَا الْمَعْرِفِيَّةِ وَالْوُجُودِيَّةِ، إِلَى جَانِبِ الْمَنْهَجِ الْمَقَاصِدِيِّ لِبَيَانِ مَدَى اتِّسَاقِهَا مَعَ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، وَالْمَنْهَجِ النَّقْدِيِّ فِي تَقْوِيمِ إِسْهَامَاتِهَا وَبَيَانِ قِيَمَتِهَا الْفِكْرِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ.

وَسَيُعَالِجُ الْبَحْثُ هَذِهِ الْإِشْكَالِيَّةَ مِنْ خِلَالِ مُقَارَبَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ الْمَنْهَجِ الْاسْتِقْرَائِيِّ فِي جَمْعِ النُّصُوصِ الْأَصْلِيَّةِ مِنْ مُؤَلَّفَاتِ ابْنِ عَجِيبَةَ، وَالْمَنْهَجِ التَّحْلِيلِيِّ فِي بَيَانِ دَلَالَاتِهَا، وَالْمَنْهَجِ الْفُلْسُفِيِّ فِي اسْتِنْطَاقِ أُسُسِهَا الْوُجُودِيَّةِ وَالْمَعْرِفِيَّةِ، وَالْمَنْهَجِ الْمَقَاصِدِيِّ فِي رِبْطِهَا بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَبِنَاءِ الْإِنْسَانِ، لِتَنْتَهِيَ الدِّرَاسَةُ إِلَى بَيَانِ الْقِيَمَةِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ لِرُوحَانِيَّةِ ابْنِ عَجِيبَةَ، وَإِبْرَازِ قُدْرَتِهَا عَلَى الْإِسْهَامِ فِي تَجْدِيدِ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ وَتَعْمِيقِ الْوَعْيِ الْأَخْلَاقِيِّ وَالرُّوحِيِّ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ.

فَرَضِيَّاتُ الْبَحْثِ:

تَنْطَلِقُ الدِّرَاسَةُ مِنْ فَرَضِيَّةٍ رَئِيسَةٍ مُؤَدَّاهَا أَنَّ الرُّوحَانِيَّةَ عِنْدَ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيبَةَ لَيْسَتْ حَالَةً وَجْدَانِيَّةً مُنْفَصِلَةً عَنِ الْحَيَاةِ، بَلْ هِيَ مَنْهَجٌ عَمَلِيٌّ يُؤَسِّسُ لِإِعَادَةِ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ عَلَى أُسُسٍ مَعْرِفِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ وَمَقَاصِدِيَّةٍ، وَأَنَّ هَذَا الْمَنْهَجَ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَدِّمَ إِسْهَامًا فِكْرِيًّا فِي مُوَاجَهَةِ أَرْمَةِ الْمَادِيَّةِ وَالْإِغْتِرَابِ وَفَقْدَانِ الْمَعْنَى الَّتِي تُعَانِي مِنْهَا الْمُجْتَمَعَاتُ الْمُعَاصِرَةُ.

وَأَهَمُّ الْفَرَضِيَّاتِ الَّتِي تَنْطَلِقُ مِنْهَا الدِّرَاسَةُ هِيَ:

- أَنَّ الرُّوحَانِيَّةَ عِنْدَ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيبَةَ تُمَثِّلُ مَنْهَجًا عَمَلِيًّا لِبِنَاءِ الْإِنْسَانِ، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَجْرِبَةٍ وَجْدَانِيَّةٍ.
- أَنَّ الْمَشْرُوعَ الصُّوفِيَّ لِابْنِ عَجِيبَةَ يَقُومُ عَلَى تَكَامُلِ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ وَالْأَخْلَاقِ، فَلَا يَعْرِفُ الْإِنْفِصَالَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.
- أَنَّ التَّحْلِيلَ الْفُلْسُفِيَّ لِنُّصُوصِ ابْنِ عَجِيبَةَ يُظْهِرُ وُجُودَ تَصَوُّرٍ مَعْرِفِيٍّ وَوُجُودِيٍّ مُتَمَاسِكٍ لِلْإِنْسَانِ وَالْعَالَمِ.

- أَنَّ الْمَقَاصِدَ الشَّرْعِيَّةَ تُمَثَّلُ إِطَارًا نَاطِمًا لِلْمَمَارَسَةِ الرُّوحِيَّةِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ.
- أَنَّ رُؤْيِيَّةَ الرُّوحِيَّةِ قَادِرَةٌ عَلَى الْإِسْهَامِ فِي تَعْزِيزِ الْقِيَمِ وَمُوَاجَهَةِ أَرْمَاتِ الْمَادِيَّةِ وَالْاِغْتِرَابِ وَفَقْدَانِ الْمَعْنَى.

الدِّرَاسَاتُ السَّابِقَةُ:

حَظِيَ ثَرَاثُ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيْبَةٍ بِاهْتِمَامٍ عَدَدٍ مِنَ الْبَاحِثِينَ فِي مَجَالَاتِ النَّصُوفِ، وَالتَّفْسِيرِ، وَالتَّرْبِيَةِ الرُّوحِيَّةِ، وَقَدْ انْتَصَرَفَتْ مُعْظَمُ الدِّرَاسَاتِ إِلَى تَحْقِيقِ مُؤَلَّفَاتِهِ، أَوْ دِرَاسَةِ مَنَهْجِهِ فِي التَّفْسِيرِ، أَوْ بَيَانِ انْتِسَابِهِ إِلَى الطَّرِيقَةِ الشَّاذِلِيَّةِ، كَمَا اهْتَمَّتْ دِرَاسَاتٌ أُخْرَى بِجَوَانِيهِ التَّرْبَوِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ كُتُبُهُ مِنْ تَوْجِيهَاتٍ سُلُوكِيَّةٍ.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ قِيَمَةِ هَذِهِ الدِّرَاسَاتِ فِي التَّعْرِيفِ بِابْنِ عَجِيْبَةٍ وَإِبْرَازِ مَكَانَتِهِ فِي الثَّرَاثِ الصُّوفِيِّ، فَإِنَّهَا – فِي جُمْلَتِهَا – غَلَبَ عَلَيْهَا الطَّابِعُ الْوَصْفِيُّ أَوْ النَّارِيخِيُّ، وَانْشَغَلَتْ بِتَتَبُعِ الْمَفَاهِيمِ وَالْمَصْطَلَحَاتِ، دُونَ أَنْ تُخْضِعَ نُصُوصَهُ لِقِرَاءَةِ فَلَاسِفِيَّةٍ تُفْصِحُ عَنْ بَنِيَّتِهَا الْمَعْرِفِيَّةِ، أَوْ لِتَحْلِيلِ مَقَاصِدِي يَرْبُطُ بَيْنَ الرُّوحَانِيَّةِ وَمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، أَوْ لِمُقَارَبَةِ ثَبِيْنِ الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي تَتَحَوَّلُ بِهَا التَّجَرُّبَةُ الرُّوحِيَّةُ إِلَى مَشْرُوعٍ عَمَلِيٍّ لِبِنَاءِ الْإِنْسَانِ.

كَذَلِكَ، لَا تُظْهَرُ مُعْظَمُ الدِّرَاسَاتِ عَنَآيَةً كَافِيَةً لِتَحْلِيلِ الْمَفَاهِيمِ الْمَرْكَزِيَّةِ الَّتِي يَبْنِي عَلَيْهَا ابْنُ عَجِيْبَةٍ رُؤْيِيَّتَهُ، مِثْلُ: التَّرْكِيبِ، وَالْمُجَاهَدَةِ، وَالْمُرَاقَبَةِ، وَالْمَعْرِفَةِ، وَالْمَحَبَّةِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَغَيْرَهَا، يَوْصِفُهَا مَفَاهِيمٌ تُشَكِّلُ نَسْقًا فِكْرِيًّا مُتَرَابِطًا، لَا مَجْمُوعَةً مِنَ الْوَصَايَا السُّلُوكِيَّةِ الْمُتَفَرِّقَةِ.

أَصَالَةُ الدِّرَاسَةِ وَقِيَمَتُهَا الْفِكْرِيَّةُ: تَكْمُنُ أَصَالَةُ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ فِي أَنهَا:

- تُقَدِّمُ قِرَاءَةً مُتَكَامِلَةً لِلْبُعْدِ الْعَمَلِيِّ لِلرُّوحَانِيَّةِ عِنْدَ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيْبَةٍ، تَجْمَعُ بَيْنَ التَّحْلِيلِ الْفَلَسَفِيِّ، وَالتَّحْلِيلِ الصُّوفِيِّ، وَالتَّحْلِيلِ الْمَقَاصِدِيِّ، وَتَنْطَلِقُ مِنَ النُّصُوصِ الْأَصْلِيَّةِ لِمُؤَلَّفَاتِهِ.
 - أَنَّهَا تَنْتَقِلُ مِنَ الْقِرَاءَةِ الْوَصْفِيَّةِ لِثَرَاثِ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيْبَةٍ إِلَى الْقِرَاءَةِ التَّحْلِيلِيَّةِ الَّتِي تَتَّخِذُ مِنَ النُّصُوصِ الْأَصْلِيَّةِ مَادَّتَهَا الْأَسَاسِيَّةَ، وَتُخْضِعُهَا لِتَحْلِيلٍ فَلَاسِفِيٍّ وَصُوفِيٍّ وَمَقَاصِدِيِّ مُتَكَامِلٍ.
 - إِنَّ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى وَصْفِ التَّجَرُّبَةِ الصُّوفِيَّةِ، بَلْ تَسْعَى إِلَى تَفْكِكِ بَنِيَّتِهَا الْمَعْرِفِيَّةِ، وَإِبْرَازِ مَرْجِعِيَّاتِهَا الشَّرْعِيَّةِ، وَتَقْوِيمِ قِيَمَتِهَا الْفِكْرِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ.
 - وَتَتَمَيَّزُ الدِّرَاسَةُ أَيْضًا بِأَنَّهَا تَنْظُرُ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ لَا بِاعْتِبَارِهَا حَالَةً وَجَدَانِيَّةً فَحَسَبُ، بَلْ يَوْصِفُهَا مَبْدَأً مُؤَسَّسًا لِبِنَاءِ الْإِنْسَانِ، وَتَحْقِيقِ التَّوَاظُنِ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، وَبَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَبَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ.
 - تَسْعَى الدِّرَاسَةُ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْمُقَارَبَةِ، إِلَى الْإِسْهَامِ فِي تَوْسِيعِ الدِّرَاسَاتِ الْفَلَاسِفِيَّةِ لِلنَّصُوفِ الْإِسْلَامِيِّ، وَإِبْرَازِ أَنَّ فِكْرَ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيْبَةٍ يَحْمِلُ أَبْعَادًا مَعْرِفِيَّةً وَأَخْلَاقِيَّةً وَحَضَارِيَّةً تَتَجَاوَزُ زَمَانَهُ، وَتُقَدِّمُ رُؤْيَةً يُمَكِّنُ الْإِفَادَةَ مِنْهَا فِي مُوَاجَهَةِ التَّحَدِّيَّاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْقِيَمِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ.
 - قَلَّةُ الدِّرَاسَاتِ الَّتِي تَتَنَاوَلُ رُوحَانِيَّةَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ عَلَى أَنَّهَا مَشْرُوعٌ لِبِنَاءِ الْإِنْسَانِ، يَجْمَعُ بَيْنَ تَهْذِيبِ الْبَاطِنِ، وَتَقْوِيمِ السُّلُوكِ، وَتَحْقِيقِ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْإِسْهَامِ فِي إِصْلَاحِ الْوَاقِعِ.
- وقد تم تقسيم فصول البحث كما يأتي:

الفصل الأول: الإطار النظري للروحانية والتصوف:

المبحث الأول: الروحانية بين المفهوم الفلسفي والمفهوم الصوفي.

المبحث الثاني: المقاصد التربوية والأخلاقية لروحانية التصوف.

المبحث الثالث: البعد العملي لروحانية التصوف عند ابن عجيبة وأثره في بناء الإنسان والمجتمع

الفصل الثاني: البُعدُ الفلسفي والمقاصدي للروحانية عند أحمد بن عجيبة:

المبحث الأول: الأسس الفلسفية لروحانية التصوف عند ابن عجيبة.

المبحث الثاني: روحانية التصوف ومقاصد الشريعة: قراءة تحليلية.

المبحث الثالث: القيمة الحضارية لروحانية التصوف عند ابن عجيبة.

الفصل الثالث: التزكية الروحية والبعد الحضاري في تصوف ابن عجيبة

المبحث الأول: التصوف وتهذيب الإنسان: مدخل إلى التزكية الروحية.

المبحث الثاني: المقاربة الفلسفية لتصوف ابن عجيبة: من التزكية إلى العمران الحضاري

المبحث الثالث: روحانية التصوف في تجربة ابن عجيبة ورهان الحضارة المعاصرة.

الخاتمة

* النتائج.

* التوصيات.

الفصل الأول

الإطار النظري للروحانية والتصوف:

تمهيد

تعدُّ الروحانية من أكثر المفاهيم حضوراً في التراث الإنساني؛ إذ لم تقتصر على بُعد عبادي محض، بل تجاوزت ذلك لتصبح منظومة وجودية وأخلاقية تُعالج علاقة الإنسان بربه، وبنفسه، وبالعالم الذي يعيش فيه. وقد اختلفت المقاربات الفلسفية والدينية في تفسير هذا المفهوم، غير أنها تكاد تتفق على أن الروحانية تمثل سعيًا مستمرًا نحو تحقيق الكمال الإنساني وتحرير الإنسان من هيمنة الشهوات وفؤود المادة.

وفي الفكر الإسلامي، لم تكن الروحانية معزولة عن الوعي، بل استمدت مرجعيتها من القرآن الكريم والسنة النبوية، فأصبح التصوف العملي أحد أبرز المسالك التي سعت إلى تجسيد معاني الإحسان وتركيب النفس وتحقيق العبودية الخالصة لله تعالى، دون انفصال عن الشريعة أو مقاصدها الكلية.

ويعُدُّ الإمام أحمد بن عجيبة الحسني (ت: 1224هـ) من أبرز أعلام التصوف السني في المغرب الإسلامي؛ إذ أقام مشروعه الروحي على التكامل بين العلم والعمل، وبين الظاهر والباطن، وبين الفقه والتصوف، مؤكداً أن الروحانية الحقيقية لا تنفصل عن السلوك العملي والإصلاح الأخلاقي.

ومن هنا تنبع أهمية هذا الفصل؛ إذ يهدف إلى تأصيل المفاهيم الرئيسية التي يقوم عليها البحث، وبيان الأسس النظرية للروحانية والتصوف، ثم التعريف بشخصية ابن عجيبة ومكانته العلمية والصوفية؛ تمهيداً لتحليل البعد العملي لروحانيته في الفصول اللاحقة.

المبحث الأول: الروحانية بين المفهوم الفلسفي والمفهوم الصوفي:

تشكل الروحانية أحد المفاهيم المحورية التي شغلت الفلسفة والأديان وعلوم الإنسان منذ القدم؛ لأنها تتعلق بأعمق أبعاد الوجود الإنساني، وتبحث في السبل التي يتحقق بها الكمال النفسي والأخلاقي. ولذلك لم يكن مفهوم الروحانية ثابتاً، بل تعددت دلالاته باختلاف المرجعيات الفلسفية والدينية.

فَفِي الْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ، ارْتَبَطَتِ الرُّوحُ بِالْحَقِيقَةِ الْعُلْيَا وَبِالسَّعْيِ نَحْوِ التَّجَرُّدِ مِنَ الْمَادَّةِ؛ إِذْ رَأَى أَفَلَاطُونُ أَنَّ الرُّوحَ جَوْهَرٌ سَمَاوِيٌّ، وَأَنَّ مَعْرِفَةَ الْحَقِيقَةِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِتَطْهِيرِهَا مِنْ أَسْرِ الْجَسَدِ، وَالْإِرْتِقَاءِ بِهَا نَحْوَ عَالَمِ الْحَقَائِقِ الثَّابِتَةِ. (لأفلاطون، 1985، ص 39).

ثُمَّ جَاءَ أَرِسْطُو فَرَبَطَ الرُّوحَ بِوُظَائِفِهَا الْحَيَوِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ، وَجَعَلَهَا صُورَةَ الْجَسَدِ وَمَبْدَأَ حَيَاتِهِ. فَقَدَّمَ فَهْمًا أَكْثَرَ وَاقِعِيَّةً لِلرُّوحِ، فَجَعَلَهَا صُورَةَ الْجَسَدِ وَمَبْدَأَ حَيَاتِهِ، وَاعْتَبَرَ أَنَّ كَمَالَ الْإِنْسَانِ يَتَحَقَّقُ بِانْسِجَامِ قُوَاهُ الْعَقْلِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ. (ارسطو، 1949، ص 89)

أَمَّا الْفَلَسَفَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، فَقَدْ أَعَادَتْ بِنَاءَ هَذَا الْمَفْهُومِ فِي ضَوْءِ الْوَحْيِ، فَأَصْبَحَتِ الرُّوحُ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَغَدَا الْإِرْتِقَاءُ الرُّوحِيُّ مَرْتَبَةً بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَتَرْكِيَةِ النَّفْسِ، لَا بِالتَّجَرُّدِ الْعَقْلِيِّ وَحْدَهُ. وَمِنْ هُنَا اخْتَلَفَتِ الرُّوْيَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ عَنِ الرُّوْيَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ الَّتِي فَصَلَتْ بَيْنَ الرُّوحِ وَالشَّرِيعَةِ. فَالرُّوحُ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَرْكِيَةِ النَّفْسِ هِيَ الْغَايَةُ الَّتِي يَتَحَقَّقُ بِهَا فَلَاحُ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ قَدَّسَاهَا﴾ (الشمس 9) وَمِنْ ثَمَّ أَصْبَحَتِ الرُّوحَانِيَّةُ فِي التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ مَرْتَبَةً بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَتَهْذِيبِ النَّفْسِ، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَجَرُّبَةٍ وَجَذَابِيَّةٍ أَوْ تَأْمُلٍ فَلَسَفِيٍّ مُجَرَّدٍ. (الغزالي، دت، ص 143)

وَأَمَّا فِي التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ، فَإِنَّ الرُّوحَانِيَّةَ لَا تُفْهَمُ بِوصفِهَا حَالَةً وَجَذَابِيَّةً مُجَرَّدَةً، بَلْ هِيَ مَسِيرَةٌ عَمَلِيَّةٌ تُقَوِّمُ عَلَى الْمُجَاهَدَةِ وَالْمُرَاقَبَةِ وَالْمُحَاسَبَةِ وَتَرْكِيَةِ النَّفْسِ وَالْإِنْتِزَامِ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ؛ فَالتَّصَوُّفُ الْحَقِيقِيُّ لَا يَنْفَصِلُ عَنِ الْفَقْهِ، وَلَا يَتَعَارَضُ مَعَ الْعَقِيدَةِ بَلْ يُمَثِّلُ بَعْدَهُمَا الْإِحْسَانِيَّ الَّذِي جَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الدِّينِ.

وَقَدْ جَعَلَ أَعْلَامُ التَّصَوُّفِ السُّنِّيِّ، كَالْإِمَامِ أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ وَالْإِمَامِ الْقَشِيرِيِّ، الرُّوحَانِيَّةَ قَائِمَةً عَلَى مُجَاهَدَةِ النَّفْسِ وَتَطْهِيرِ الْقَلْبِ وَتَحْقِيقِ مَقَامِ الْإِحْسَانِ، مُؤَكِّدِينَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ وَالْحَقِيقَةَ مُتَلَازِمَتَانِ، وَلَا يَصِحُّ إِحْدَاهُمَا بِدُونِ الْآخَرَى. (القشيري، 1994، ص 93)

وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ، تَتَجَلَّى الرُّوحَانِيَّةُ الصُّوفِيَّةُ فِي كَوْنِهَا مَشْرُوعًا إِصْلَاحِيًّا لِلْإِنْسَانِ، يَنْتَقِلُ بِهِ مِنْ مَرَحَلَةِ الْإِسْتِجَابَةِ الشَّكْلِيَّةِ لِلتَّكَالِيفِ إِلَى مَرَحَلَةِ الْإِخْلَاصِ وَالشُّهُودِ وَالْإِتْقَانِ، فَيَعْدُو السُّلُوكُ الْعَمَلِيُّ تَغْيِيرًا صَادِقًا عَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْقَلْبِ مِنْ مَعْرِفَةٍ وَإِيمَانٍ.

وَيُعَدُّ أَحْمَدُ بْنُ عَجِيبَةَ امْتِدَادًا لِهَذِهِ الْمَدْرَسَةِ؛ إِذْ بَنَى مَشْرُوعَهُ الصُّوفِيَّ عَلَى التَّكَامُلِ بَيْنَ الْفَقْهِ وَالتَّزْكِيَةِ، وَبَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَبَيْنَ ظَاهِرِ الشَّرِيعَةِ وَبَاطِنِهَا، وَرَأَى أَنَّ الرُّوحَانِيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ لَا تَنْفَصِلُ عَنِ السُّلُوكِ الْعَمَلِيِّ وَالْإِصْلَاحِ الْأَخْلَاقِيِّ. (ابن عجيبة، 1985، ص 89)

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، فَإِنَّ الرُّوحَانِيَّةَ عِنْدَ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيبَةَ لَا تُمَثَّلُ انْعِزَالًا عَنِ الْوَاقِعِ، وَلَا هُرُوبًا مِنَ الْحَيَاةِ، بَلْ هِيَ مِنْهْجٌ عَمَلِيٌّ لِإِعَادَةِ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ، وَتَحْقِيقِ التَّوَارُنِ بَيْنَ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ، وَعِمَارَةِ الْأَرْضِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ، وَهُوَ مَا سَيُتَضَحُّ فِي الْمَبَاحِثِ الْلاحِقَةِ مِنَ الدِّرَاسَةِ مِنْ خِلَالِ تَحْلِيلِ نُصُوصِهِ الْأَصْلِيَّةِ وَرُؤْيِيَةِ الرُّوحِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ.

إِنَّ مَفْهُومَ الرُّوحَانِيَّةِ لَيْسَ مَفْهُومًا أَحَادِيٍّ الدَّلَالَةِ، بَلْ هُوَ مَفْهُومٌ مُرَكَّبٌ تَشَكَّلَ فِي ضَوْءِ مَرْجِعِيَّاتِ فَلَسَفِيَّةٍ وَدِينِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ. فَبَيْنَمَا الْفَلَسَفَاتُ الْقَدِيمَةُ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ بِاعْتِبَارِهَا مَسَارًا لِلتَّجَرُّدِ الْعَقْلِيِّ وَالْإِرْتِقَاءِ نَحْوَ الْحَقِيقَةِ، أَعَادَ الْإِسْلَامُ تَأْسِيسَ هَذَا الْمَفْهُومِ عَلَى مَرْجِعِيَّةِ الْوَحْيِ، فَعَدَّتِ الرُّوحَانِيَّةُ مَشْرُوعًا شَامِلًا لِتَرْكِيَةِ نَظَرَتِ النَّفْسِ، وَتَهْذِيبِ السُّلُوكِ، وَتَحْقِيقِ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى.

وَقَدْ بَرَهَنَ التَّصَوُّفُ السُّنِّيُّ عَلَى أَنَّ الرُّوحَانِيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ لَا تَنْفَصِلُ عَنِ الشَّرِيعَةِ، وَلَا تُقَوِّمُ عَلَى الْانْعِزَالِ عَنِ الْوَاقِعِ، بَلْ تُؤَسِّسُ لِمَنْهَجِ تَرْبَوِيٍّ وَأَخْلَاقِيٍّ يُعِيدُ بِنَاءَ الْإِنْسَانِ مِنْ دَاخِلِهِ، وَيُحَقِّقُ التَّوَارُنَ بَيْنَ

صَلَاحِ الْبَاطِنِ وَاسْتِقَامَةِ الظَّاهِرِ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ الرُّوحَانِيَّةَ فِي التَّصَوُّرِ الصُّوفِيِّ لَا تُعَدُّ غَايَةً فِي ذَاتِهَا، بَلْ وَسِيلَةٌ لِتَحْقِيقِ الْإِحْسَانِ، وَتَكْوِينِ الْإِنْسَانِ الصَّالِحِ، وَالْإِسْهَامِ فِي إِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ. وَتُعَدُّ هَذِهِ الرُّوْيَةُ مَدْخَلًا

أَسَاسِيًّا لِفَهْمِ الْمَشْرُوعِ الصُّوفِيِّ عِنْدَ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيْبَةٍ، الَّذِي لَمْ يَجْعَلِ الرُّوحَانِيَّةَ تَجْرِبَةً دُوقِيَّةً مُنْعَزَلَةً، بَلْ رَبطَهَا بِالْعَمَلِ، وَالْمُجَاهَدَةِ، وَتَرْكِيبَةِ النَّفْسِ، وَالْإِلْتِزَامَ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، وَهُوَ مَا يُمَهِّدُ لِلانْتِقَالِ إِلَى دِرَاسَةِ النَّصُوفِ الْعَمَلِيِّ وَمَقَاصِدِهِ التَّرْبَوِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ فِي الْمَطْلَبِ الثَّانِي، لِلْكَشْفِ عَنْ كَيْفِيَّةِ تَحَوُّلِ الرُّوحَانِيَّةِ مِنْ مَعْرِفَةٍ نَظَرِيَّةٍ إِلَى مَنَهْجٍ عَمَلِيٍّ يُسَهِّمُ فِي صِيَاغَةِ شَخْصِيَّةِ الْإِنْسَانِ وَبِنَاءِ حَضَارَتِهِ.

المبحث الثاني: المقاصد التَّربَوِيَّةُ وَالْأَخْلَاقِيَّةُ لروحانية التصوف:

يُعَدُّ الْجَانِبُ الْعَمَلِيُّ لِلنَّصُوفِ أَحَدَ الْأَرْكَانِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي قَامَ عَلَيْهَا الْبِنَاءُ الرُّوحِيُّ فِي الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فَهُوَ لَا يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ الْمَعْرِفَةِ النَّظَرِيَّةِ، وَلَا يَكْتَفِي بِالتَّأَمُّلِ الْفَلْسَفِيِّ أَوْ الذُّوقِ الْوَجْدَانِيِّ، بَلْ يَتَجَاوَزُ ذَلِكَ إِلَى بِنَاءِ مَنَهْجٍ عَمَلِيٍّ يَهْدِفُ إِلَى إِصْلَاحِ الْإِنْسَانِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَتَحْقِيقِ التَّوَازُنِ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالسُّلُوكِ، وَبَيِّنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ. (عفيفي، 1963، ص 79)

يَقُومُ النَّصُوفُ فِي جَانِبِهِ الْعَمَلِيِّ عَلَى أَسَاسِ أَنَّ الْإِصْلَاحَ الْحَقِيقِيَّ لَا يَبْدَأُ مِنَ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، بَلْ يَنْطَلِقُ مِنْ إِصْلَاحِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ هِيَ مَحَلُّ التَّكْلِيفِ، وَمِنْهَا تَنْبُعُ الْأَفْعَالِ وَالْأَخْلَاقِ. وَمِنْ ثَمَّ، جَعَلَ الْمُتَصَوِّفُ الْمُجَاهَدَةَ وَالْمُرَاقَبَةَ وَالْمُحَاسَبَةَ وَالتَّوْبَةَ أَسَاسًا ثَابِتَةً لِلسُّلُوكِ الرُّوحِيِّ، حَتَّى يَبْلُغَ السَّالِكُ مَقَامَ الْإِحْسَانِ الَّذِي وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ. (عفيفي، 1963، ص 83). حيث ربط العبادة بالخلق. "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك". (مسلم، 1955، حديث رقم 8)

وَلَمْ يَنْظُرِ الْمُتَصَوِّفُ إِلَى الْمُجَاهَدَةِ عَلَى أَنَّهَا مُجَرَّدُ رِيَاضَةٍ نَفْسِيَّةٍ، بَلْ عَدُّوْهَا وَسِيلَةً لِتَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ مِنْ سَيِّطَرَةِ الْهَوَى وَالشَّهْوَةِ وَحُبِّ الدُّنْيَا، حَتَّى يُصْبِحَ الْعَقْلُ وَالْقَلْبُ مُنْسَجِمَيْنِ فِي طَلَبِ الْحَقِّ، وَفِي تَحْقِيقِ الْعُبُودِيَّةِ الْخَالِصَةِ لِلَّهِ تَعَالَى (المحاسبى، 1984، ص 272)

وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ، لَا يُمَكِّنُ فَهْمُ النَّصُوفِ الْعَمَلِيِّ بِمَعْزَلٍ عَنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ؛ إِذْ إِنَّ غَايَتَهُ الدِّهَانِيَّةَ هِيَ حِفْظُ دِينِ الْإِنْسَانِ، وَتَرْكِيبَةِ نَفْسِهِ، وَتَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِ، وَتَحْقِيقِ الْإِسْتِقَامَةِ فِي سُلُوكِهِ، وَهِيَ كُلُّهَا مَقَاصِدُ تُسَهِّمُ فِي بِنَاءِ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ عَلَى أَسَاسِ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ. (الشاطبي، 1997، ص 145)

وَقَدْ تَجَلَّى هَذَا الْمَنَهْجُ بِوُضُوحٍ فِي تَرَاثِ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيْبَةٍ، الَّذِي رَفَضَ الْفَصْلَ بَيْنَ الْفَهْمِ وَالنَّصُوفِ، وَأكَّدَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ بِغَيْرِ حَقِيقَةٍ جَافَةٍ، وَأَنَّ الْحَقِيقَةَ بِغَيْرِ شَرْيْعَةٍ زَائِعَةٍ، فَلَا يَكْتُمِلُ سُلُوكُ الْعَبْدِ إِلَّا بِاجْتِمَاعِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَالتَّزْكِيَةِ وَالْإِلْتِزَامِ بِأَحْكَامِ الشَّرْعِ. (ابن عجيبة، 2011، ص 235)

ولذلك يؤكد ابن عجيبة على أهمية ربط العلم بالعمل، ويتجلى ذلك في قوله: "فمثل العلم النافع بالمطر النازل من السماء، فانه تحيا به النفوس بعد الموت بالجهل والشك، وتحيا به الأرواح بعد موتها بالغفلة والحباب، وتمتلئ به القلوب على قدر وسعها وسعتها، وتظهر به النفوس من المعاصي. (ابن عجيبة، 1999، ص 19)

وَتَبَيَّرُ الْقِيَمَةُ التَّرْبَوِيَّةُ لِلنَّصُوفِ فِي جَانِبِهِ الْعَمَلِيِّ فِي كَوْنِهِ يُرَبِّي الْإِنْسَانَ عَلَى الصِّدْقِ، وَالْإِخْلَاصِ، وَالصَّبْرِ، وَالتَّوَاضُّعِ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَهِيَ قِيَمٌ لَا تَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ الْفَرْدِ، بَلْ تَنْعَكِسُ عَلَى الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْمُؤَسَّسَاتِ وَالْبِنَاءِ الْحَضَارِيِّ لِلأُمَّةِ. وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ التَّرْبِيَّةَ الصُّوفِيَّةَ لَا تَسْعَى إِلَى إِنتَاجِ إِنْسَانٍ مُنْعَزَلٍ عَنِ الْوَاقِعِ، بَلْ إِلَى إِنْسَانٍ يَجْمَعُ بَيْنَ صَلَاحِ الْقَلْبِ وَالْإِجَابِيَّةِ فِي الْعَمَلِ وَالْإِسْهَامِ فِي إِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ. (القشيري، 1994، ص 89)

وَمِنْ الْمَنْظُورِ الْفَلْسَفِيِّ، يَتَّضِحُ أَنَّ النَّصُوفَ فِي جَانِبِهِ الْعَمَلِيِّ يَنْطَوِي عَلَى رُؤْيَا مُتَكَامِلَةٍ؛ فَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْإِنْسَانِ بِاعْتِبَارِهِ وَحْدَةً مُتَكَامِلَةً لَا يَنْفَصِلُ فِيهَا الْجِسْمُ عَنِ الرُّوحِ، وَلَا الْعَقْلُ عَنِ الْقَلْبِ، وَلَا الْفَكْرُ عَنِ السُّلُوكِ. وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ أَيْ مَعْرِفَةٍ لَا تُثْمَرُ عَمَلًا، وَأَيَّ عِبَادَةٍ لَا تُنْتِجُ خُلُقًا، تَبْقَى مَعْرِفَةً نَاقِصَةً لَا تُحَقِّقُ الْغَايَةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خُلِقَ الْإِنْسَانُ (ابن عجيبة، 2002، ص 232). ولذلك يؤكد ابن عجيبة على أهمية ان يكون العلم والعمل خالصا لله للتحقق بالتزكية. فيقول: "فتصفية العلم بالإخلاص، فيذهب عنه قصد الجاه او

التوصل الى الدنيا، وتصفية العمل بالإخلاص والاتقان فيذهب عنه الرياء والعجب به. (ابن عجيبة، 1999، ص20)

وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ الْجَانِبَ الْعَمَلِيَّ لِلتَّصَوُّفِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيبَةَ لَا يُمَثَّلُ مَسَلَكًا فَرَعِيًّا فِي الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ، بَلْ يُعَدُّ مَشْرُوعًا تَرْبَوِيًّا وَأَخْلَاقِيًّا وَحَصَارِيًّا يَسْتَهْدَفُ إِعَادَةَ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ، وَتَحْقِيقَ الْإِنْسِجَامِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ، وَبَيْنَ التَّرَكُّبِيَّةِ وَالْعُمُرَانِ، وَهُوَ مَا سَيَتَّضِحُ بِصُورَةٍ أَعَمَقَ عِنْدَ دِرَاسَةِ مَظَاهِرِ الْعِبَادَةِ وَتَرْكِيَةِ النَّفْسِ فِي تَجَرُّبَتِهِ الصُّوفِيَّةِ.

ومن الجدير بالذكر أَنَّ التَّصَوُّفَ الْعَمَلِيَّ لَيْسَ مَنَهَجًا قَائِمًا عَلَى الزُّهْدِ الشَّكْلِيِّ أَوْ الْإِنْعِرَالِ عَنِ الْوَاقِعِ، بَلْ هُوَ مَشْرُوعٌ تَرْبَوِيٌّ وَأَخْلَاقِيٌّ مُتَكَامِلٌ يَسْتَهْدَفُ إِعَادَةَ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ مِنْ دَاخِلِهِ، مِنْ خِلَالِ تَرْكِيَةِ النَّفْسِ، وَتَهْذِيبِ السُّلُوكِ، وَتَرْسِيخِ قِيَمِ الْإِحْلَاصِ وَالصِّدْقِ وَالْمُرَاقَبَةِ وَالْإِحْسَانِ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ الْعَمَلَ الصُّوفِيَّ لَا يَنْفَصِلُ عَنِ الْعِلْمِ، وَلَا عَنِ الشَّرِيعَةِ، بَلْ يُمَثَّلُ التَّطَبُّقُ الْعَمَلِيُّ لِمَقَاصِدِهَا فِي بِنَاءِ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ.

ويتضح أَنَّ الْمَقَاصِدَ التَّرَبُّوِيَّةَ وَالْأَخْلَاقِيَّةَ لِلتَّصَوُّفِ، تَتَجَلَّى فِي صِيَاعَةِ شَخْصِيَّةٍ مُتَوَازِنَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ سَلَامَةِ الْعَقِيدَةِ، وَاسْتِقَامَةِ السُّلُوكِ، وَرُقْيِ الْأَخْلَاقِ، وَالْإِيجَابِيَّةِ فِي الْعَمَلِ وَالْإِصْلَاحِ، وَهُوَ مَا يَجْعَلُ التَّصَوُّفَ فِي جَانِبِهِ الْعَمَلِيَّ رَافِدَ مَهْمٍ فِي تَحْقِيقِ اسْتِقْرَارِ النَّفْسِيِّ وَالتَّمَسُّكِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالنُّهُوضِ الْحَضَارِيِّ.

وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي فِكْرِ أَحْمَدَ بْنِ عَجِيبَةَ؛ إِذْ تَأَسَّسَتْ رُؤْيَتُهُ الصُّوفِيَّةُ عَلَى التَّكَامُلِ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ، وَبَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَبَيْنَ التَّرَكُّبِيَّةِ وَالْبِنَاءِ، مُؤَكِّدًا أَنَّ الرُّوحَانِيَّةَ الصَّادِقَةَ لَا تُقَاسُ بِكَثْرَةِ الدَّعَاوِي، وَإِنَّمَا تُعْرَفُ بِأَثَرِهَا فِي تَهْذِيبِ النَّفْسِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَالْإِلْتِزَامِ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ.

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، يُعَدُّ التَّصَوُّفُ فِي جَانِبِهِ الْعَمَلِيَّ عِنْدَ ابْنِ عَجِيبَةَ مَدْخَلًا مَعْرِفِيًّا وَتَرْبَوِيًّا لِفَهْمِ الْبُعْدِ الْعَمَلِيِّ لِلرُّوحَانِيَّةِ، وَهُوَ مَا يُمَهِّدُ لِلانْتِقَالِ إِلَى الْمَطْلَبِ الثَّالِثِ أَبْعَادَ رُوحَانِيَّةِ التَّصَوُّفِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيبَةَ وَأَثَرِهَا فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَإِعَادَةِ تَشْكِيلِ وَجْهِهِ، وَفِي بِنَاءِ الْمَجْتَمَعِ.

المبحث الثالث: البُعدُ الْعَمَلِيُّ لِرُوحَانِيَّةِ التَّصَوُّفِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيبَةَ وَأَثَرُهُ فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَالْمُجْتَمَعِ:

لَا يَقِفُ التَّصَوُّفُ عِنْدَ ابْنِ عَجِيبَةَ عِنْدَ حُدُودِ الْمَعْرِفَةِ النَّظَرِيَّةِ، وَلَا يَنْحَصِرُ فِي التَّجَارِبِ الْوُجْدَانِيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ، بَلْ يَتَحَوَّلُ إِلَى مَنَهَجٍ عَمَلِيٍّ يُعِيدُ تَشْكِيلَ الْإِنْسَانِ مِنْ دَاخِلِهِ، وَيَنْعَكِسُ أَثَرُهُ عَلَى سُلُوكِهِ الْفَرْدِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ وَمِنْ هُنَا يَتَجَلَّى الْبُعدُ الْعَمَلِيُّ لِلرُّوحَانِيَّةِ الصُّوفِيَّةِ، إِذْ تُغْدُو التَّرَكُّبِيَّةُ وَسِيلَةً لِإِصْلَاحِ الْفَرْدِ، وَإِصْلَاحِ الْفَرْدِ مَدْخَلًا لِإِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ، وَهُوَ مَا يُجَنِّدُ الْمَقْصِدَ الْإِصْلَاحِيَّ الَّذِي حَمَلَهُ التَّرَاثُ الصُّوفِيُّ السُّنِّيُّ. (ابن عجيبة، 2011، ص278)

وَيُؤَكِّدُ ابْنُ عَجِيبَةَ أَنَّ السَّبِيلَ إِلَى اللَّهِ لَيْسَ انْقِطَاعًا عَنِ الْحَيَاةِ، بَلْ هُوَ ارْتِقَاءٌ فِي كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَهَا؛ فَالْعَارِفُ الصَّادِقُ أَكْثَرُ النَّاسِ خِدْمَةً لِلْخَلْقِ، وَأَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَأَوْفَاهُمْ بِالْعُهُودِ، وَأَشَدُّهُمْ تَوَاضُعًا، لِأَنَّ ثَمَرَةَ الْمَعْرِفَةِ هِيَ الْعَمَلُ، وَثَمَرَةُ الْعَمَلِ هِيَ الْإِحْسَانُ. (ابن عجيبة، 2011، ص283)

وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ، يَرْفُصُ ابْنُ عَجِيبَةَ كُلَّ فَهْمٍ لِلتَّصَوُّفِ يَجْعَلُهُ انْعِرَالًا أَوْ هُرُوبًا مِنَ الْوَاقِعِ؛ لِأَنَّ الْعُبُودِيَّةَ الْحَقَّةَ تَقْتَضِي الْقِيَامَ بِحُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ الْعِبَادِ مَعًا، وَأَنَّ الْوِلَايَةَ لَا تَنْفَصِلُ عَنِ الْمَسْئُولِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ. (ابن عجيبة، 2002، ص236)

وَيَبْزُرُ الْبُعدُ الْفَلَسَفِيُّ فِي هَذَا التَّصَوُّرِ مِنْ خِلَالِ إِعَادَةِ تَعْرِيفِ الْإِنْسَانِ؛ فَلَيْسَ الْإِنْسَانُ كَائِنًا اقْتِصَادِيًّا أَوْ اجْتِمَاعِيًّا فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ كَائِنٌ رُوحِيٌّ يَحْمِلُ أَمَانَةً الْاسْتِخْلَافِ وَكَلِمًا تَحَرَّرَتْ رُوحُهُ مِنْ أَسْرِ الْأَهْوَاءِ، اِزْدَادَ قُدْرَةً عَلَى إِعْمَارِ الْأَرْضِ بِالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ، وَهُوَ مَا يَحَقِّقُ التَّكَامُلَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْعُمُرَانِ. (ابن عجيبة، 2002، ص238). وَإِذَا كَانَتِ الْفَلَسَفَاتُ الْمَادِيَّةُ تُقِيمُ الْإِنْسَانَ عَلَى مَحَوِّرِ الْمُنْفَعَةِ، فَإِنَّ ابْنَ عَجِيبَةَ يُقِيمُهُ عَلَى مَحَوِّرِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ، لِأَنَّ الْقُرْبَ هُوَ الْمَعْيَارُ الْحَقِيقِيُّ لِكِرَامَةِ الْإِنْسَانِ. وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ الْقِيَمَ الْأَخْلَاقِيَّةَ لَيْسَتْ نِظَامًا اجْتِمَاعِيًّا فَقَطْ، بَلْ هِيَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْعُبُودِيَّةِ. (ابن عاشور، 2006، ص169)

وَمِنْ أَهَمِّ آثَارِ هَذِهِ الرُّوحَانِيَّةِ تَعَزُّيُ قِيَمِ التَّسَامُحِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعَدْلِ، إِذْ يَرَى ابْنُ عَجِيْبَةٍ أَنَّ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ لَا يَحْمِلُ الْحَقْدَ، وَلَا يَتَعَالَى عَلَى النَّاسِ، بَلْ يَرَاهُمْ جَمِيعًا مَحَلًّا لِرَحْمَةِ اللَّهِ، وَمِنْ هُنَا يَنْشَأُ الْوَعْيُ الْأَخْلَاقِي الَّذِي يُسَهِّمُ فِي تَمَاسُكِ الْمُجْتَمَعِ وَالْحَدِّ مِنَ

الصِّرَاعَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ. (طه، 2012، ص 172)

وَفِي الْمَقَارَبَةِ الْمَقَاصِدِيَّةِ، تَنْسَجِمُ هَذِهِ الرُّوْيَةُ مَعَ مَقْصَدِ حِفْظِ الدِّينِ مِنْ خِلَالِ تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ الْحَقِيقِيِّ، وَمَقْصَدِ حِفْظِ النَّفْسِ بِتَطْهِيرِهَا مِنَ الْأَمْرَاضِ الْبَاطِنَةِ، وَمَقْصَدِ حِفْظِ الْعَقْلِ بِتَحْرِيرِهِ مِنْ وَهْمِ الْأَنَانِيَّةِ، وَمَقْصَدِ حِفْظِ الْمُجْتَمَعِ بِإِسَاعَةِ قِيَمِ الْإِحْسَانِ وَالْمَحَبَّةِ. وَبِذَلِكَ يَتَحَوَّلُ التَّصَوُّفُ إِلَى مَشْرُوعٍ حَضَارِيِّ يَخْدُمُ الْإِنْسَانَ وَالْعُمُرَانَ مَعًا.

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ إِنَّ ابْنَ عَجِيْبَةٍ قَدَّمَ نُمُوْدَجًا مُتَكَامِلًا لِلرُّوحَانِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ؛ فَهِيَ رُوحَانِيَّةٌ تُزَكِّي النَّفْسَ، وَتَهْدُبُ الْأَخْلَاقَ، وَتَحَقِّقُ الْإِحْسَانَ، وَتُسَهِّمُ فِي بِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ عَلَى أُسُسِ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالتَّعَاوُنِ، وَهُوَ مَا يَجْعَلُ فِكْرَهُ قَادِرًا عَلَى الْإِسْهَامِ فِي مُعَالَجَةِ أَرْمَاتِ الْإِنْسَانِ الْمُعَاَصِرِ الَّذِي يُعَانِي فَرَاغًا رُوحِيًّا وَاعْتِرَابًا قِيَمِيًّا.

إِنَّ التَّصَوُّفَ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ لَيْسَ انْفِصَالًا عَنِ الشَّرِيعَةِ، وَلَا انْعِرَازًا عَنِ الْوَاقِعِ، بَلْ هُوَ امْتِدَادٌ لِمَقَاصِدِهَا، وَتَجَسُّدٌ لِقِيَمِهَا الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ، حَيْثُ يَتَحَقَّقُ الْإِيمَانُ الْحَقِيقِيُّ بِاجْتِمَاعِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالْمُجَاهَدَةِ، وَيُصْبِحُ الْإِحْسَانُ غَايَةَ السَّالِكِ وَثَمَرَةَ سُلُوكِهِ. وَتَجْدُرُ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْبُعْدَ الْعَمَلِيَّ لِلرُّوحَانِيَّةِ التَّصَوُّفِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ يَقُومُ عَلَى تَحْوِيلِ الْمَعْرِفَةِ الرُّوحِيَّةِ إِلَى سُلُوكٍ وَاقِعِيٍّ يُجَسِّدُ قِيَمَ الْإِحْسَانِ وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ، فَلَا تَقِفُ التَّرَكِّيَّةُ عِنْدَ حُدُودِ إِصْلَاحِ النَّفْسِ، بَلْ تَمْتَدُّ لِتُسَهِّمَ فِي إِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ وَتَعَزُّيُ الْعِلَاقَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى أُسُسِ أَخْلَاقِيَّةٍ رَاسِخَةٍ.

حَيْثُ يَقْدِمُ ابْنُ عَجِيْبَةٍ تَصَوُّرًا مُتَكَامِلًا لِلْإِنْسَانِ، يَجْمَعُ بَيْنَ سَلَامَةِ الْبَاطِنِ وَاسْتِقَامَةِ الظَّاهِرِ، وَيَحَقِّقُ التَّوَازُنَ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالْعُمُرَانِ، وَبَيْنَ التَّرَكِّيَّةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، بِمَا يَنْسَجِمُ مَعَ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَالنَّفْسِ وَالْعَقْلِ وَإِقَامَةِ الْقِيَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ. وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ رُوحَانِيَّةَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ لَيْسَتْ انْسِحَابًا مِنَ الْوَاقِعِ، بَلْ هِيَ مَشْرُوعٌ إِصْلَاحِيٌّ وَحَضَارِيٌّ يَهْدَفُ إِلَى بِنَاءِ الْإِنْسَانِ الْمُتَوَازِنِ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ صِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ، وَسَمُوِّ الْأَخْلَاقِ، وَفَاعِلِيَّةِ الْحُضُورِ فِي الْحَيَاةِ، وَهُوَ مَا يُكْسِبُ فِكْرَهُ أَهْمِيَّةً فُلْسُفِيَّةً وَمَقَاصِدِيَّةً مُتَجَدِّدَةً فِي مُوَاجَهَةِ التَّحْدِيَّاتِ الرُّوحِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ لِلْإِنْسَانِ الْمُعَاَصِرِ.

ويمكن القول أن روحانية التصوف عند ابن عجيبة ليست تجربة ذاتية منعزلة، وإنما هي مشروع عملي متكامل يهدف إلى بناء الإنسان أخلاقياً وروحياً، وإصلاح المجتمع من خلال قيم الإحسان والرحمة والعدل. ولذلك فإن البعد العملي في تصوفه يمثل تجسيدا للتكامل بين الشريعة والحقيقة، وبين تركية النفس وإعمار الأرض مما يمنح فكره قيمة فلسفية ومقاصدية معاصرة قادرة على الإسهام في معالجة الأزمات الأخلاقية والروحية التي يشهدها الإنسان المعاصر.

خُلَاصَةُ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ:

تَوَصَّلَ هَذَا الْمَبْحَثُ إِلَى أَنَّ رُوحَانِيَّةَ التَّصَوُّفِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ تَقُومُ عَلَى مَنْهَجِ إِصْلَاحِيٍّ مُتَكَامِلٍ، يَجْمَعُ بَيْنَ تَرْكِيَّةِ النَّفْسِ وَتَهْدِيبِ السُّلُوكِ وَتَحْقِيقِ الْإِحْسَانِ، فَلَا تَقْتَصِرُ عَلَى الْجَانِبِ الْوُجْدَانِيِّ، بَلْ تَمْتَدُّ لِتَشْكَلَ رُؤْيَا شَامِلَةً لِلْإِنْسَانِ وَالْحَيَاةِ وَالْمُجْتَمَعِ، مُنْطَلَقَةً مِنْ مَبْدِ الْعُبُودِيَّةِ الْخَالِصَةِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمُنْتَهِيَةً إِلَى تَحْقِيقِ الْخِلَافَةِ فِي الْأَرْضِ بِالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ.

كَذَلِكَ كَشَفَتِ الدِّرَاسَةُ عَنِ الْبُعْدِ الْفُلْسُفِيِّ لِلرُّوحَانِيَّةِ ابْنِ عَجِيْبَةٍ، إِذْ أَعَادَ بِنَاءَ مَفْهُومِ الْإِنْسَانِ عَلَى أُسَاسِ التَّكَامُلِ بَيْنَ الْجَسَدِ وَالرُّوحِ، وَبَيْنَ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، وَبَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالشَّرِيعَةِ، وَهُوَ مَا يُمْنَحُ تَصَوُّرَهُ بُعْدًا حَضَارِيًّا يَتَجَاوَزُ الْإِطَارَ التَّعْبُدِيَّ الضَّيِّقَ إِلَى بِنَاءِ الْإِنْسَانِ الْمُتَوَازِنِ الْقَادِرِ عَلَى الْإِسْهَامِ فِي إِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ.

وَمِنْ مَنْظُورٍ مَقَاصِدِيٍّ، تَبَيَّنَ أَنَّ الْمَنْهَجَ الصُّوفِيَّ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ يُسَهِّمُ فِي تَحْقِيقِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ مِنْ خِلَالِ تَرْكِيَّةِ النَّفْسِ، وَتَرْسِيخِ الْقِيَمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَتَعَزُّيُ الْوَعْيِ الْإِيمَانِيِّ، وَبِنَاءِ الْعِلَاقَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى أُسَاسِ

الْمَحَبَّةَ وَالتَّسَامُحَ وَالتَّكَافُلَ، وَهُوَ مَا يَجْعَلُ فِكْرَهُ ذَا قِيَمَةٍ عِلْمِيَّةٍ وَفَلَسَفِيَّةٍ وَإِصْلَاحِيَّةٍ، تَصْلُحُ لِلْإِفَادَةِ مِنْهَا فِي مُعَالَجَةِ الْأَرْزَامَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ الَّتِي يُوَاجِهُهَا الْإِنْسَانُ الْمُعَاصِرُ.

وَبِذَلِكَ يَكُونُ هَذَا الْمُبْحَثُ كَشَفَ عَنِ الْأُسُسِ النَّظَرِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ لِفَهْمِ رُوحَانِيَّةِ التَّصَوُّفِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ، مِمَّا يُمَهِّدُ لِلانْتِقَالِ إِلَى الْمُبْحَثِ الثَّانِي، الَّذِي سَيَتَنَاوَلُ أُبْعَادَ هَذِهِ الرُّوحَانِيَّةِ فِي ضَوْءِ التَّحْلِيلِ الْفَلَسَفِيِّ وَالْمَقَاصِدِيِّ، وَأَثَرَهَا فِي بِنَاءِ الْوَعْيِ الْإِنْسَانِيِّ وَالْحَضَارِيِّ.

الفصل الثاني: البعد الفلّسفيّ والمقاصديّ لروحانيّة التصوّف عند ابن عجيبة:

تمهيد:

يُعَدُّ التَّصَوُّفُ الْإِسْلَامِيُّ أَحَدَ أَبْرَزِ الْمَسَالِكِ الْفِكْرِيَّةِ الَّتِي سَعَتْ إِلَى تَحْقِيقِ التَّكَامُلِ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالسُّلُوكِ، وَبَيْنَ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، وَبَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ، وَهُوَ مَا يَجْعَلُهُ مَوْضُوعًا خَصْبًا لِلدِّرَاسَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ وَالْمَقَاصِدِيَّةِ. وَإِذَا كَانَ الْمُبْحَثُ الْأَوَّلُ قَدْ عُنِيَ بِبَيَانِ

الْأُسُسِ الْمَفَاهِيمِيَّةِ وَالبُعْدِ الْعَمَلِيِّ لِرُوحَانِيَّةِ التَّصَوُّفِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ، فَإِنَّ هَذَا الْمُبْحَثَ يَنْتَقِلُ إِلَى مَرَحَلَةٍ أَعَمَّقَ مِنَ التَّحْلِيلِ، مِنْ خِلَالِ الْكَشْفِ عَنِ الْبُنْيَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا رُؤْيَاهُ الرُّوحِيَّةُ، وَعَلَاقَتُهَا بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَلَمْ يَكُنْ ابْنُ عَجِيْبَةٍ مُجَرَّدَ شَارِحٍ لِلتَّرَاثِ الصُّوفِيِّ، بَلْ أَعَادَ صِيَاغَةَ مَفَاهِيمِهِ فِي إِطَارٍ يَجْمَعُ بَيْنَ الْعُمُقِ الرُّوحِيِّ وَالْوَعْيِ الْفَلَسَفِيِّ، فَعَدَا التَّصَوُّفُ عِنْدَهُ نَسَقًا مَعْرِفِيًّا يُفَسِّرُ حَقِيقَةَ الْإِنْسَانِ، وَيُحَدِّدُ غَايَةَ وُجُودِهِ، وَيُبَيِّنُ سُبُلَ ارْتِقَائِهِ نَحْوَ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ.

وَهَذَا الْبُعْدُ يَكْشِفُ أَنَّ التَّصَوُّفَ عِنْدَهُ لَيْسَ تَجْرِبَةً دَوْقِيَّةً فَحَسَبُ، بَلْ هُوَ رُؤْيَاهُ أَنْطُولُوجِيَّةٌ وَأَخْلَاقِيَّةٌ تُعِيدُ تَفْسِيرَ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَرَبِّهِ، وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْكُونِ، وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ وَذَاتِهِ.

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، يَبْزُرُ الْمَنْظُورُ الْمَقَاصِدِيُّ فِي فِكْرِ ابْنِ عَجِيْبَةٍ مِنْ خِلَالِ اعْتِبَارِ النَّزْكِيَّةِ وَسِيلَةً لِتَحْقِيقِ الْمَقَاصِدِ الْكُلِّيَّةِ لِلشَّرِيعَةِ، فَلَا يَنْفَصِلُ تَهْذِيبُ الْبَاطِنِ عَنْ إِصْلَاحِ الظَّاهِرِ، وَلَا يَنْفَصِلُ صِلَاحُ الْفَرْدِ عَنْ صِلَاحِ الْمُجْتَمَعِ، بَلْ يَقُومُ الْأَمْرُ كُلُّهُ عَلَى مَبْدِ التَّكَامُلِ الَّذِي يُعَدُّ مِنْ أَبْرَزِ خَصَائِصِ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ.

وَانْطِلَاقًا مِنْ ذَلِكَ، يَسْعَى هَذَا الْمُبْحَثُ إِلَى تَحْلِيلِ الْأُسُسِ الْفَلَسَفِيَّةِ لِرُوحَانِيَّةِ التَّصَوُّفِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ، وَبَيَانِ ارْتِبَاطِهَا بِالْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ، وَإِبْرَازِ قِيَمَتِهَا الْفِكْرِيَّةِ فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَالْحَضَارَةِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ ثَلَاثَةِ مَطَالِبٍ مُتَرَابِطَةٍ:

- المبحث الأول: الأسس الفلّسفيّة لروحانيّة التصوّف عند ابن عجيبة.
- المبحث الثاني: روحانيّة التصوّف ومقاصد الشريعة قراءة تحليليّة
- المبحث الثالث: القيمة الحضاريّة لروحانيّة التصوّف في فكر ابن عجيبة.

المبحث الأول: الأسس الفلّسفيّة لروحانيّة التصوّف عند ابن عجيبة

تَنْطَلِقُ رُوحَانِيَّةُ التَّصَوُّفِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ مِنْ رُؤْيَاهُ فَلَسَفِيَّةٍ مُتَكَامِلَةٍ لِلْإِنْسَانِ وَالْوُجُودِ، لَا تَقِفُ عِنْدَ الْجَانِبِ التَّعْبِيدِيِّ الْمُجَرَّدِ، بَلْ تَمْتَدُّ إِلَى بِنَاءِ نَظَرِيَّةٍ مَعْرِفِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ تُفَسِّرُ مَكَانَةَ الْإِنْسَانِ فِي الْكُونِ، وَغَايَةَ وُجُودِهِ، وَسُبُلَ ارْتِقَائِهِ نَحْوَ الْكَمَالِ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ التَّصَوُّفَ عِنْدَهُ لَيْسَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَدْوَابِ الرُّوحِيَّةِ، بَلْ هُوَ مَنْهَجٌ فَلَسَفِيٌّ يُعِيدُ صِيَاغَةَ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَرَبِّهِ، وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ وَذَاتِهِ، وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْعَالَمِ. وَيَقُومُ هَذَا التَّصَوُّرُ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ كَائِنٌ مُرَكَّبٌ مِنْ جَانِبٍ مَادِيٍّ وَجَانِبٍ رُوحِيٍّ، وَأَنَّ الْحَقِيقَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ لَا تَتَحَقَّقُ بِإِشْبَاعِ الْحَاجَاتِ الْجَسَدِيَّةِ وَحْدَهَا، بَلْ بِتَرْكِيَةِ الرُّوحِ وَتَطْهِيرِ الْقَلْبِ وَتَرْقِيَةِ الْعَقْلِ. وَهَذَا الْفَهْمُ يَجْعَلُ مِنَ الرُّوحِ مُحَوَّرَ الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ، وَمِنَ الْقَلْبِ مَرْكَزَ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِدْرَاكِ، وَهُوَ مَا يَنْسَجِمُ مَعَ الرُّؤْيَا الْفَرَاثِيَّةِ تَجْعَلُ الثَّقْوَى وَالْبَصِيرَةَ أَسَاسَ الْكَمَالِ الَّتِي الْإِنْسَانِيَّةُ. (محمود، 1966، ص267)

وَيَرَى ابْنُ عَجَبَةَ أَنَّ الْعَقْلَ عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِهِ لَا يَسْتَقِلُّ بِإِدْرَاكِ جَمِيعِ الْحَقَائِقِ، بَلْ يَحْتَاجُ إِلَى نُورِ الْوَحْيِ وَتَرْكِيبِ الْقَلْبِ. (ابن عجيبة، 2002، ص274). لِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ الْحَقِيقِيَّةَ هِيَ تَكَامُلُ الْبُرْهَانِ وَالذُّوقِ، وَاجْتِمَاعِ الْعِلْمِ النَّظَرِيِّ وَالْعِلْمِ الْعَمَلِيِّ. وَفِي هَذَا يَقْتَرِبُ مِنَ الْعَزَالِي فِي نَقْدِ الْإِكْتِفَاءِ بِالْعَقْلِ الْمُجَرَّدِ، مَعَ احْتِقَاطِهِ بِمَكَانَةِ الْعَقْلِ أَدَاةً لِلتَّدَبُّرِ وَالِاسْتِدْلَالِ، لَا مُنَافِسًا لِلْوَحْيِ، بَلْ مُكَامِلًا مَعَهُ. وَمِنْ أَهَمِّ الْأَسْئِيسِ الْفَلْسَفِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا رُوحَانِيَّتُهُ مَبْدَأُ التَّكَامُلِ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ؛ فَلَا يَرَى لِلشَّرِيعَةِ قِيَمَةً مِنْ غَيْرِ حَقِيقَةٍ تُحْيِي الْقَلْبَ، وَلَا لِلْحَقِيقَةِ مَشْرُوعِيَّةً إِذَا تَجَرَّدَتْ مِنَ الْإِلْتِزَامِ بِأَحْكَامِ الشَّرْعِ. وَبِذَلِكَ يُقِيمُ ابْنُ عَجَبَةَ نَسَقًا فُلْسُفِيًّا يُزِيلُ النَّقَابَ بَيْنَ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، وَيَجْعَلُهُمَا وَجْهَيْنِ لِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الْعُبُودِيَّةُ لِلَّهِ تَعَالَى. وَتَرْتَكِزُ هَذِهِ الرُّوْيَةُ عَلَى فَهْمٍ وَجُودِيٍّ لِلْإِنْسَانِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَ ابْنِ عَجَبَةَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ كَائِنًا مُنْعَلَقًا عَلَى ذَاتِهِ، بَلْ هُوَ كَائِنٌ مُتَعَالٍ يَقْدِرُ اتِّصَالَهُ بِاللَّهِ، وَكَلَّمَا تَحَرَّرَ مِنْ أَسْرِ النَّفْسِ وَالشَّهْوَةِ، اقْتَرَبَ مِنْ حَقِيقَةِ الْحُرِّيَّةِ الرُّوحِيَّةِ. وَمِنْ هُنَا يَرَى ابْنُ عَجَبَةَ أَنَّ الزَّهْدَ هُوَ: خَلُوَ الْبَاطِنِ مِنَ الْمِيلِ إِلَى فَنٍ، وَفَرَاغَ الْقَلْبِ مِنَ الثَّقَةِ بِزَانِلِ (ابن عجيبة، 2007، ص119). وَهَذِهِ الْحُرِّيَّةُ لَا تَعْنِي التَّحَلُّلَ مِنَ الْقِيَمِ، بَلْ تَعْنِي التَّحَرُّرَ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْهَوَى، وَالِانْتِقَالَ إِلَى عُبُودِيَّةِ اللَّهِ، وَهُوَ أَسْمَى أَنْوَاعِ الْحُرِّيَّةِ فِي الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ. (محمود، 1966، ص273)

وَيُؤَسِّسُ ابْنُ عَجَبَةَ، مِنْ خِلَالِ هَذَا التَّصَوُّرِ، لِنَظَرِيَّةٍ فِي الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ، تَقُومُ عَلَى الْارْتِقَاءِ الْمُسْتَمِرِّ لِلنَّفْسِ مِنْ مَرَاتِبِ الْعُقْلَةِ إِلَى مَقَامَاتِ الْيَقَظَةِ، وَمِنْ عَالَمِ الْأَسْبَابِ إِلَى شُهُودِ الْمُسْتَبِ، وَمِنْ الْاعْتِمَادِ عَلَى النَّفْسِ إِلَى الْإِفْتِقَارِ الْكَامِلِ إِلَى اللَّهِ. (ابن عجيبة، 2002، ص276). وَهُوَ مَا يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَعِيشُ حَالَةً دَائِمَةً مِنَ التَّرَكِّي وَالتَّجَدُّدِ الرُّوحِيِّ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْكَمَالَ لَيْسَ حَالَةً سَاكِنَةً، بَلْ مَسِيرَةٌ لَا تَنْقَطِعُ مَا دَامَ الْإِنْسَانُ حَيًّا. وَمِنْ هُنَا يُؤَكِّدُ ابْنُ عَجَبَةَ عَلَى الْمَقَامَاتِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَقِيَ فِيهَا الْمَرِيدُ، وَهِيَ ثَلَاثَةُ مَقَامَاتٍ، مَقَامُ الْإِسْلَامِ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِإِصْلَاحِ الظَّاهِرِ، وَمَقَامُ الْإِيمَانِ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِإِصْلَاحِ الْقُلُوبِ وَالضَّمَائِرِ، وَمَقَامُ الْإِحْسَانِ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِإِصْلَاحِ الْأَرْوَاحِ وَالسَّرَائِرِ. (ابن عجيبة، 1999، ص75)

وَمِنْ زَاوِيَةِ فُلْسُفِيَّةٍ، يُمَكِّنُ الْقَوْلُ أَنَّ ابْنَ عَجَبَةَ قَدْ تَجَاوَزَ الثَّنَائِيَّاتِ الَّتِي شَغَلَتْ كَثِيرًا مِنَ الْفُلْسَفَاتِ، كَالثَّنَائِيَّةِ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالرُّوحِ، وَبَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَبَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْعَمَلِ، فَقَدَّمَ رُويَةً تَوْحِيدِيَّةً تَرَى أَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْأَبْعَادِ تَتَكَامَلُ فِي تَحْقِيقِ الْعُبُودِيَّةِ الْكَامِلَةِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّمَا أَرَادَ مَعْرِفَةَ رَبِّهِ أَرَادَ إِعْمَارًا لِلْأَرْضِ وَإِحْسَانًا إِلَى الْخَلْقِ، وَهُوَ مَا يُضْفِي عَلَى تَصَوُّرِهِ بُعْدًا حَضَارِيًّا وَإِنْسَانِيًّا عَمِيقًا.

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ أَنَّ الْأَسْئِيسَ الْفُلْسُفِيَّةَ لِرُوحَانِيَّةِ التَّصَوُّفِ عِنْدَ ابْنِ عَجَبَةَ تَقُومُ عَلَى رُويَةٍ شَامِلَةٍ، تَرَفُضُ الْإِفْتِصَالَ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، وَبَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ، وَبَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَتُؤَسِّسُ لِمَفْهُومٍ مُتَكَامِلٍ لِلْإِنْسَانِ يَجْمَعُ بَيْنَ الْبُعْدِ الرُّوحِيِّ وَالْبُعْدِ الْأَخْلَاقِيِّ وَالْبُعْدِ الْحَضَارِيِّ. وَيَكْشِفُ التَّحْلِيلُ أَنَّ ابْنَ عَجَبَةَ لَمْ يَنْظُرْ إِلَى التَّصَوُّفِ عَلَى أَنَّهُ مُمَارَسَاتٌ تَعْبُدِيَّةٌ مُحَضَّةٌ، بَلْ يَعْتَبِرُهُ نَظَرِيَّةً مَعْرِفِيَّةً وَتَرْبُويَةً تُعِيدُ بِنَاءَ الْإِنْسَانِ مِنْ دَاخِلِهِ، وَتُحَقِّقُ التَّوَازْنَ بَيْنَ مُقْتَضِيَّاتِ الرُّوحِ وَمُتَطَلِّبَاتِ الْحَيَاةِ، بِمَا يَنْسَجِمُ مَعَ الْمَقْصِدِ الْأَعْلَى لِلشَّرِيعَةِ فِي تَحْقِيقِ الْعُبُودِيَّةِ الْخَالِصَةِ لِلَّهِ تَعَالَى.

وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ الْبُنْيَةَ الْفُلْسُفِيَّةَ لِفِكْرِ ابْنِ عَجَبَةَ تَنْسَجِمُ بِالِاتِّسَاقِ وَالتَّكَامُلِ، وَتُقَدِّمُ نُمُودَجًا مَعْرِفِيًّا يَرْبُطُ بَيْنَ التَّرَكِّيَّةِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَبَيْنَ الْحُرِّيَّةِ الرُّوحِيَّةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَهُوَ مَا يُكْسِبُ رُويَتَهُ أَهَمِّيَّةً فُلْسُفِيَّةً وَحَضَارِيَّةً تَتَجَاوَزُ زَمَانَهُ، وَتَجْعَلُهَا قَادِرَةً عَلَى الْإِسْهَامِ فِي مُعَالَجَةِ أَرْوَاحِ الْإِنْسَانِ الْمُعَاَصِرِ.

المبحث الثاني: رُوحَانِيَّةُ التَّصَوُّفِ وَمَقَاصِدُ الشَّرِيعَةِ: قِرَاءَةُ تَخْلِيلِيَّة:

تُمَثِّلُ مَقَاصِدُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْإِطَارَ الْكُلِّيَّ الَّذِي تَنْتَظِمُ فِيهِ الْأَحْكَامُ وَالْقِيَمُ الْأَخْلَاقِيَّةُ، وَتَهْدَفُ فِي جَوْهَرِهَا إِلَى تَحْقِيقِ مَصَالِحِ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَإِذَا كَانَ التَّصَوُّفُ عِنْدَ بَعْضِ الدَّارِسِينَ يُقْرَأُ بِاعْتِبَارِهِ تَجْرِبَةً رُوحِيَّةً دَائِمِيَّةً، فَإِنَّ قِرَاءَةَ فِكْرِ ابْنِ عَجَبَةَ تُظْهِرُ أَنَّهُ يَجْعَلُ مِنَ الرُّوحَانِيَّةِ سَبِيلًا لِتَحْقِيقِ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ، وَيَرَى ابْنُ عَجَبَةَ: أَنَّ التَّرَكِّيَّةَ لَيْسَتْ غَايَةً مُنْعَزَلَةً، بَلْ هِيَ وَسِيلَةٌ لِإِقَامَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى مِنْهَاجِ الْإِسْتِقَامَةِ وَالْإِحْسَانِ. (ابن عجيبة، 2011، ص322)

وَيَنْطَلِقُ ابْنُ عَجِيْبَةٍ مِنْ مَبْدَأٍ أَسَاسِيٍّ، وَهُوَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ وَالْحَقِيقَةَ لَا يَنْفَصِلُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ؛ فَالشَّرِيعَةُ تَقُومُ الْجَوَارِحَ، وَالْحَقِيقَةُ تُرَكِّبُ الْقُلُوبَ، وَبِاجْتِمَاعِهِمَا يَتَحَقَّقُ الْمَقْصُودُ مِنَ التَّكْلِيفِ الشَّرْعِيِّ، وَهُوَ تَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ الْكَامِلَةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ الْعِبَادَاتِ لَا تُقَاسُ بِصُورِهَا الظَّاهِرَةِ فَقَطُّ بَلْ بِمَا تُحْدِثُهُ مِنْ أَثَرٍ فِي تَطْهِيرِ النَّفْسِ وَتَهْذِيبِ الْخُلُقِ وَتَحْقِيقِ الْإِحْلَاصِ. (ابن عجيبة، 2011، ص325)

وَيَتَجَلَّى الْبُعْدُ الْمَقَاصِدِيُّ فِي فِكْرِ ابْنِ عَجِيْبَةٍ مِنْ خِلَالِ اعْتِبَارِهِ أَنَّ تَرْكِيبَةَ النَّفْسِ تُعَدُّ الْمَدْخَلَ الْحَقِيقِيَّ لِحِفْظِ الضَّرُورِيَّاتِ الْخَمْسِ، فَحِفْظُ الدِّينِ يَتَحَقَّقُ بِصِدْقِ الْإِيمَانِ وَالْإِحْلَاصِ، وَحِفْظُ النَّفْسِ يَكُونُ بِتَطْهِيرِهَا مِنْ الْحِفْدِ وَالْكِبْرِ وَالْحَسَدِ، وَحِفْظُ الْعَقْلِ يَتَجَلَّى فِي تَحْرِيرِهِ مِنَ الْوَهْمِ وَالْعَقْلَةِ، كَمَا أَنَّ حِفْظَ الْمَالِ وَالنَّسْلِ يَرْتَبُ بِإِقَامَةِ الْأَمَانَةِ

وَالْعَدْلِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْآخَرِينَ. (الشاطبي، 1997، ص365)

إِنَّ الْقِرَاءَةَ الْمَقَاصِدِيَّةَ لِفِكْرِ ابْنِ عَجِيْبَةٍ تُظْهِرُ أَنَّ النَّصُوفَ لَيْسَ مَسْلَكًا تَعَبُديًّا مَعْرُوْلًا عَنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، بَلْ هُوَ أَحَدُ أَبْرَزِ الْمَدَاحِلِ الَّتِي تُفَعِّلُ هَذِهِ الْمَقَاصِدَ فِي الْوَاقِعِ الْإِنْسَانِيِّ. فَالْمَقَاصِدُ فِي جَوهرِهَا تَسْعَى إِلَى جَلْبِ الْمَصَالِحِ وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ، وَهُوَ مَا لَا يَتَحَقَّقُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ إِلَّا بِتَرْكِيبَةِ النَّفْسِ وَتَهْذِيبِ الْقَلْبِ، لِأَنَّ السُّلُوكَ الْإِنْسَانِيَّ هُوَ الثَّمَرَةُ الْعَمَلِيَّةُ لِمَا يَسْتَقِرُّ فِي الْبَاطِنِ مِنْ إِيْمَانٍ وَقِيَمٍ وَأَخْلَاقٍ. (ابن عجيبة، 2011، ص327)

وَيُؤَكِّدُ ابْنُ عَجِيْبَةٍ أَنَّ الشَّرِيعَةَ وَالْحَقِيقَةَ لَا تُمَثِّلَانِ مَسَارَيْنِ مُتَوَازِيَيْنِ، بَلْ هُمَا وَجْهَانِ لِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فَالشَّرِيعَةُ تُصْلِحُ الظَّاهِرَ، وَالْحَقِيقَةُ تُرَكِّبُ الْبَاطِنَ، وَإِذَا اجْتَمَعَ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ تَحَقَّقَ الْإِحْسَانُ الَّذِي جَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَى مَرَاتِبِ الدِّينِ. (ابن عجيبة، 2011، ص338)

وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الْمَقْصِدَ الْأَوَّلَ لِلنَّصُوفِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ هُوَ تَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ الْخَالِصَةِ، لَا بِمَعْنَاهَا الشَّكْلِيَّةِ، بَلْ بِمَعْنَاهَا الْوُجُودِيَّةِ الَّذِي يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ مُتَحَرِّرًا مِنْ سُلْطَانِ الْهَوَى، وَمُتَّجِهَا بِكُلِّيَّتِهِ نَحْوَ اللَّهِ تَعَالَى. وَفِي هَذَا تُظْهِرُ الْعِلَاقَةُ الْوُثِيقَةُ بَيْنَ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَمَقَاصِدِ التَّزْكِيَّةِ؛ إِذْ إِنَّ إِصْلَاحَ الْقَلْبِ يُفْضِي إِلَى إِصْلَاحِ الْعَمَلِ، وَإِصْلَاحُ الْعَمَلِ يُفْضِي إِلَى صِلَاحِ الْمُجْتَمَعِ. (ابن عجيبة، 2011، ص343)

وَيَتَجَلَّى ذَلِكَ بوضوح في مَقْصِدِ حِفْظِ الدِّينِ، فَلَا يَقْتَصِرُ حِفْظُهُ عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى الشَّعَائِرِ، بَلْ يَمْتَدُّ إِلَى صِيَانَةِ حَقِيقَةِ الْإِيْمَانِ مِنَ الرِّيَاءِ وَالْعُجْبِ وَالْعَقْلَةِ، وَهِيَ الْأَمْرَاضُ الَّتِي أُولَاهَا ابْنُ عَجِيْبَةٍ عِنَايَةً كَبِيرَةً فِي كُتُبِهِ، لِأَنَّهَا تُفْسِدُ الْعَمَلَ وَتُفْرِغُ الْعِبَادَةَ مِنْ مَقْصُودِهَا. (ابن عجيبة، 2011، ص344)

وَكَذَلِكَ يَرْتَبُطُ النَّصُوفُ بِمَقْصِدِ حِفْظِ النَّفْسِ، لَا مِنْ حَيْثُ الْبُعْدُ الْجَسَدِيُّ فَقَطُّ بَلْ مِنْ حَيْثُ سَلَامَتُهَا الرُّوحِيَّةُ وَالنَّفْسِيَّةُ؛ فَالنَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ هِيَ النَّفْسُ الَّتِي تَخَلَّصَتْ مِنَ الْحِفْدِ وَالْحَسَدِ وَالْغَضَبِ وَخُبِّ الدُّنْيَا، وَهُوَ مَا يُسْنَهُمْ فِي بِنَاءِ شَخْصِيَّةٍ مُتَرَنِّةٍ قَادِرَةٍ عَلَى الْعَطَاءِ وَالْإِصْلَاحِ (الشاطبي، 1997، ص387). أَمَّا حِفْظُ الْعَقْلِ، فَلَا يَتَحَقَّقُ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ بِتَحْصِيلِ الْعُلُومِ وَحَدِّهَا، بَلْ بِتَحْرِيرِ الْعَقْلِ مِنْ أَسْرِ الْأَوْهَامِ وَالْأَهْوَاءِ، وَإِنَارَتِهِ بِنُورِ الْوَحْيِ، حَتَّى يَغْدُو الْعِلْمُ وَسِيلَةً لِلْهَدَايَةِ، لَا أَدَاةً لِلْجَدَلِ أَوْ الْكِبَرِ الْعِلْمِيِّ. (ابن عجيبة، 2011، ص289). وَلَا يَقِفُ الْأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بَلْ يَمْتَدُّ أَثَرُ الرُّوحَانِيَّةِ إِلَى حِفْظِ الْمَالِ وَالنَّسْلِ؛ لِأَنَّ مَنْ تَرَكَتْ نَفْسُهُ اسْتَقَامَتْ مُعَامَلَاتُهُ، وَصَدَقَتْ أَمَانَتُهُ، وَعَدَلَ فِي أَهْلِهِ، وَأَحْسَنَ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ. (ابن عجيبة، 2004، ص393)

وَبِذَلِكَ تَتَحَقَّقُ الْمَقَاصِدُ الشَّرْعِيَّةُ مِنْ خِلَالِ الْإِصْلَاحِ الْأَخْلَاقِيِّ قَبْلَ الْإِصْلَاحِ الْقَانُونِيِّ. وَمِنْ النَّاحِيَةِ الْفَلَسَفِيَّةِ، يُقَدِّمُ ابْنُ عَجِيْبَةٍ قِرَاءَةً عَمِيقَةً لِلْمَقَاصِدِ، تَجْعَلُهَا لَيْسَتْ غَايَاتٍ تَشْرِيعِيَّةً فَقَطُّ بَلْ غَايَاتٍ وَجُودِيَّةً تَسْعَى إِلَى تَحْقِيقِ الْإِنْسَانِ فِي أَرْقَى صُورِهِ، وَتَحْوِيلِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنْ مُجَرَّدِ تَكْلِيفٍ إِلَى تَرْبِيَّةٍ رُوحِيَّةٍ تُثْمِرُ الْإِحْسَانَ وَالْحِكْمَةَ وَالْعَدْلَ.

وَيَبْضُحُ الْبُعْدُ الْمَقَاصِدِيُّ فِي فِكْرِ ابْنِ عَجِيْبَةٍ مِنْ خِلَالِ اعْتِبَارِهِ أَنَّ التَّزْكِيَّةَ لَيْسَتْ عَمَلًا فَرْدِيًّا مَحْضًا، بَلْ هِيَ مِنْهَجُ إِصْلَاحِيٍّ يَنْعَكِسُ أَثَرُهُ عَلَى الْأُسْرَةِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالْأُمَّةِ. فَالْإِنْسَانُ الَّذِي يَتَحَقَّقُ بِالْإِحْسَانِ يُصْبِحُ أَكْثَرَ

التزاماً بالعدل وأوفى بالعهود، وأحرص على أداء الأمانات، وأبعد عن الظلم والفساد، وهو ما يجسد المقصد الكلي للشرعية في إقامة الصلاح ودفع الفساد. (الشاطبي، 1997، ص411)

ولذلك لم يفصل ابن عجيبة بين العبادة والأخلاق، ولا بين المجاهدة والمعاملة؛ فالذكر الذي لا يثمر تواضعاً، والعلم الذي لا ينتج خشيةً، والعبادة التي لا تصلح السلوك، كلها لا تحقق الغاية شرعت من أجلها. وهنا تظهر العلاقة الجوهرية بين مقاصد الشريعة ومقاصد التربية الصوفية، إذ يتحدد الهدف وإن اختلفت وسائل التحقيق.

ومن منظور فلسفي، يمكن القول إن ابن عجيبة يقدم مفهوماً للإصلاح يبدأ من إصلاح الذات قبل إصلاح الواقع؛ لأن الواقع ليس سوى امتداد لما يستقر في الضمير الإنساني. وهذا التصور يلتقي مع ما ذهب إليه عدد من المفكرين المسلمين الذين ربطوا بين النهضة الحضارية وإصلاح الإنسان، وإن اختلفت مناهجهم في التعبير عن هذه الفكرة. ويؤكد الشاطبي في قوله: "إنما وضعت الشريعة لمصالح العباد في العاجل والأجل معاً". (الشاطبي، 1997، ص416). فإصلاح المجتمع إنما هو انعكاس لتزكية الانسان، وصلاح المجتمع يقوم على صلاح افراده و تحملهم المسؤولية.

ولعل ما يميز ابن عجيبة أنه لا يقف عند البعد الأخلاقي، بل يرتقي بالمقاصد إلى بعد إحصاني، حيث يغدو الإنسان لا يعمل لمجرد الوجوب، بل يعمل حباً لله، وتغلباً له، واستشعاراً لمراقبته، وهو ما يحول العبادة من مجرد تكليف إلى تجربة روحية تنتج السكينة والطمأنينة والاستقامة. (ابن عجيبة، 2002، ص237)

وإذا كانت المقاصد تُعنى بتحقيق مصالح العباد، فإن التصوف عند ابن عجيبة يمثل البعد التربوي الذي يضمن استدامة هذه المصالح؛ لأن القوانين وحدها تردع الظاهر.

أما تزكية القلب فهي التي تمنع الفساد من متبعه، وتربي الإنسان على الرقابة الذاتية التي تُعد من أعظم المقاصد التربوية في الإسلام. (ابن عجيبة، 2002، ص239)

ويكشف التحليل الفلسفي لنصوصه أن ابن عجيبة لا ينظر إلى الإنسان باعتباره كائناً مادياً، بل يعده كائناً روحياً وأخلاقياً، لا يبلغ كماله إلا بتحقيق التوازن بين العقل والقلب، وبين العلم والعمل، وبين الحق والخلق. وهو تصور يتفق مع الرؤية القرآنية للإنسان باعتباره خليفة في الأرض، مسؤولاً عن إعمارها وتحقيق العدل والإحسان.

ويمكن القول أن ابن عجيبة قدم قراءة مقاصدية عميقة لروحانية التصوف، جعلت من التزكية وسيلة لتحقيق غايات الشريعة، ومن الإحسان محوراً يجمع بين صلاح الفرد وإصلاح المجتمع. وكشفت الدراسة أن التكامل بين الشريعة والحقيقة يمثل الأساس الذي تقوم عليه رؤيته الفكرية، وأن المقاصد لا تبلغ كمالها إلا إذا اقترنت بتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق. ومن ثم، فإن روحانية التصوف عند ابن عجيبة تمثل مشروعاً مقاصدياً وحضارياً متكاملًا، يسهم في بناء الإنسان وترسيخ القيم التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية.

إن روحانية التصوف عند ابن عجيبة تقوم على بنية فلسفية ومقاصدية متكاملة، تؤسس لفهم شمولي للإنسان والوجود، وتربط بين المعرفة والتزكية، وبين العقيدة والسلوك، وبين الشريعة والحقيقة، دون أن تُقيم تعارضاً بين هذه الأبعاد، بل تجعلها دوائر متكاملة تحدم غاية واحدة هي تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى.

فالمقاصد الشرعية عند ابن عجيبة لا تنفصل عن التزكية الروحية؛ فالعبادات لا تُوتي ثمارها الحقيقية إلا إذا أنتجت إنساناً يتحلى بالصدق والأمانة والتواضع والرحمة، وهو ما جعل ابن عجيبة يرى أن الإحسان هو الغاية العليا التي تلتقي عندها مقاصد الشريعة ومقاصد التصوف.

وبهذا يتضح أن العلاقة بين روحانية التصوف ومقاصد الشريعة عند ابن عجيبة ليست علاقة توازن، بل علاقة تكامل وتداخل؛ فالمقاصد تحدد الغايات، والتصوف يزود الإنسان بالوسائل الروحية والأخلاقية التي تُعينه على تحقيقها، ومن ثم يتحول الإصلاح من مجرد مشروع تشريعي إلى مشروع تربوي وحضاري متكامل.

المبحث الثالث: القيمة الحضارية والمعاصرة لروحانيّة الصوّف في فكر ابن عجيبة:

إن روحانيّة الصّوّف عند ابن عجيبة لا يمكن النظر إليها في إطار السياق التاريخي الذي نشأت فيه، بل أنها تجاوزت زمانها، لتقدّم رؤية حضارية متكاملة للإنسان والمجتمع، قائمة على التوازن بين البعد الروحي والبعد العمراني، وبين تركية الفرد وإصلاح الواقع. وهذا ما يكسب فكره بُعداً معاصراً، لا باعتباره تراثاً يستحضر للذكرى، بل باعتباره مشروعاً فكرياً يمكن أن يسهم في معالجة كثير من أزمات الإنسان المعاصر.

ومن ثم فإن أبرز مظاهر هذه القيمة الحضارية أن ابن عجيبة لم يجعل الإصلاح منحصرًا في إقامة الأحكام الظاهرة، بل ربطه بإصلاح الوعي وتطهير الضمير؛ لأنّ الحضارات لا تبنى بالقوة المادية وحدها، بل تقوم أيضًا على القيم الأخلاقية والمبادئ الروحية التي توجه سلوك الإنسان وتقوم علاقاته بغيره. (طه، 2000، ص169)

ومن هذا المنطلق، تمثل روحانيّة الصّوّف عند ابن عجيبة نقداً فلسفياً للنزعة المادية التي جعلت الإنسان يقيس نجاحه بمقدار ما يملكه، لا بمقدار ما يتحلى به من فضائل وقيم. فالغنى الحقيقي عنده هو غنى النفس والحرية الحقيقية هي التحرر من سلطان الشهوة والهوى، والسعادة الحقيقية هي السكينة الناتجة عن معرفة الله والقرب منه. (ابن عجيبة، 2004، ص411)

ويكسب هذا التصور أهمية خاصة في العصر الحديث، الذي يشهد تصاعداً في الأزمات النفسية والاجتماعية الروحية وتفكك المنظومة القيمية؛ فيقدم ابن عجيبة بديلاً فكرياً يقوم على إعادة التوازن بين الروح والمادة، وبين الحق والمنفعة، وبين الحرية والمسؤولية، وهو توازن يمثل أحد أسس الاستيفار الإنساني والاجتماعي.

ولا ينحصر أثر هذه الرؤية في الفرد، بل يمتد إلى المجتمع؛ لأنّ المجتمع الذي تسوده قيم الإحسان والتسامح والأمانة والعدل يكون أقرب إلى تحقيق التماسك الاجتماعي والعدالة والسلام المجتمعي، وهي كلها مقاصد كُلية تسعى الشريعة الإسلامية إلى ترسيخها من خلال تربية الإنسان قبل تقييد السلوك.

ومن الجهة الفلسفية، يتقاطع فكر ابن عجيبة مع عدد من الرؤى المعاصرة التي أصبحت تؤكد أنّ التنمية الحقيقية لا تقوم على النمو الاقتصادي وحده، بل تقوم على تنمية الإنسان وتعزيز رأس المال الأخلاقي والثقافي. (ابن نبي، 1986، ص87)

وهو ما يجعل روحانيّة قابلاً للحوار مع الفكر الإنساني المعاصر دون أن تفقد أصولها الإسلامية.

وعلى هذا الأساس، فإن ابن عجيبة لا يقدم الصّوّف على أنّه ماضٍ يستذكر، بل على أنّه مشروع متجدد لبناء الإنسان، وتحقيق الإصلاح، وترسيخ القيم، وهو ما يؤكد أنّ روحانيّة تتمتع بقدرة على مواكبة التحولات المعاصرة دون أن تتخلى عن مرجعيتها القرآنية والسنية، ودون أن تنزلق إلى روحانيّة منفصلة عن الواقع أو عن التكليف الشرعي.

وتجدر الإشارة إلى أنّ القيمة الحضارية والمعاصرة لروحانيّة الصّوّف عند ابن عجيبة تنبع من قدرتها على تقديم رؤية متكاملة للإنسان، تجمع بين تركية الباطن وإصلاح الظاهر، وبين الإيمان والعمل، وبين القيم الروحية والمسؤولية الحضارية. وبذلك يتجاوز الصّوّف عنده كونه تجربة فردية ليصبح مشروعاً إصلاحياً يسهم في بناء الإنسان والمجتمع.

وقد كشف التحليل أنّ ابن عجيبة أقام تصوّره على مبدأ التوازن بين الروح والمادة، وبين الدنيا والآخرة، وبين الحرية والمسؤولية، وهو توازن يتفق مع المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية، ويقدم إجابات فكرية عديدة من التحريات التي يعيشها الإنسان المعاصر، وخاصة أزمات الاغتراب الروحي والفراغ القيمي.

وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ رُوحَانِيَّةَ ابْنِ عَجَبِيَّةَ لَا تُمَثِّلُ ثَرَاتًا تَارِيخِيًّا فَحَسْبُ، بَلْ تُشَكِّلُ مَرْجِعِيَّةً فُلْسُفِيَّةً وَتَرْبَوِيَّةً وَمَقَاصِدِيَّةً، قَادِرَةً عَلَى الْإِسْهَامِ فِي إِعَادَةِ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ، وَتَعَزِيزِ الْوَعْيِ الْأَخْلَاقِيِّ، وَتَرْسِيخِ قِيَمِ الْإِحْسَانِ وَالْعَدْلِ وَالتَّرَاحُمِ، بِمَا يُؤَكِّدُ حُصُورَ الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ السُّنِّيِّ فِي مُعَالَجَةِ قَضَايَا الْعَصْرِ بِرُؤْيَا أُصِيلَةٍ وَمُنْفَتِحَةٍ.

خلاصة:

انتهى الفصل إلى أَنَّ الْقِيَمَةَ الْمُعَاصِرَةَ لِفِكْرِ ابْنِ عَجَبِيَّةَ تَكْمُنُ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى تَقْدِيمِ نُمُودَجٍ إِصْلَاحِيٍّ يَرْبِطُ بَيْنَ التَّرْبِيَةِ الرُّوحِيَّةِ وَالْبِنَاءِ الْحَضَارِيِّ، وَيَقْدِّمُ مُعَالَجَةً لِأَزْمَاتِ الْإِنْسَانِ الْمُعَاصِرِ مِنْ خِلَالِ إِعَادَةِ الِاعْتِبَارِ لِلْقِيَمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْمَقَاصِدِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَهُوَ مَا يَجْعَلُ فِكْرَهُ قَابِلًا لِلِاسْتِنْمَارِ الْعِلْمِيِّ فِي الدِّرَاسَاتِ الْفُلْسُفِيَّةِ وَالصُّوفِيَّةِ وَالْمَقَاصِدِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ، وَيُمَهِّدُ لِلِانْتِقَالِ إِلَى الْمُبْحَثِ الثَّلَاثِ، الَّذِي سَيُلْقِي الضَّوْءَ عَلَى الْأَفَاقِ الْمُعَاصِرَةِ التَّطْبِيقِيَّةِ لِرُوحَانِيَّةِ النَّصُوفِ فِي مُوَاجَهَةِ تَحْدِيَّاتِ الْوَقَاعِ الْإِنْسَانِيِّ وَالْحَضَارِيِّ.

الفصل الثالث التزكية الروحية والبعد الحضاري في تصوف ابن عجيبة

تمهيد:

لَا تَكْمُنُ قِيَمَةُ الثَّرَاثِ الْفِكْرِيِّ فِي كَوْنِهِ شَاهِدًا عَلَى مَرَحَلَةٍ تَارِيخِيَّةٍ مَضَتْ، بَلْ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِسْهَامِ فِي فَهْمِ الْوَقَاعِ وَتَوْجِيهِ الْمُسْتَقْبَلِ. وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ، فَإِنَّ رُوحَانِيَّةَ النَّصُوفِ عِنْدَ ابْنِ عَجَبِيَّةَ لَا تُمَثِّلُ نَسَقًا مَعْرِفِيًّا مَاصُوبًا، بَلْ تُشَكِّلُ مَشْرُوعًا فِكْرِيًّا مُتَجَدِّدًا يَمْتَلِكُ قُدْرَةً عَلَى تَقْدِيمِ بَدَائِلٍ أَخْلَاقِيَّةٍ وَرُوحِيَّةٍ لِلْأَزْمَاتِ الَّتِي تُوَاجِهُ الْإِنْسَانَ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ. وَقَدْ أَتَتْ التَّحْوُلَاتُ الْحَضَارِيَّةُ الْمُتَسَارِعَةُ، وَتَغْلَبُ الْمُنْطِقُ الْمَادِي، وَتَفَاقُمُ الْفَرَاغِ الرُّوحِيِّ إِلَى بُرُوزِ حَاجَةٍ مُتَزَايِدَةٍ إِلَى خِطَابٍ يُعِيدُ التَّوَازُنَ بَيْنَ الْبُعْدِ الْمَادِيِّ وَالْبُعْدِ الْقِيَمِيِّ. (ابن نبي، 1986، ص 89)

وَهُنَا تَبْرُزُ أَهَمِّيَّةُ فِكْرِ ابْنِ عَجَبِيَّةَ، لِأَنَّهُ يَقْدِّمُ نُمُودَجًا يَقُومُ عَلَى تَرْبِيَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ دَاخِلِهِ، وَجَعَلَ الْإِصْلَاحَ الرُّوحِيَّ أَسَاسًا لِكُلِّ إِصْلَاحٍ اجْتِمَاعِيٍّ وَحَضَارِيٍّ. وَلَا يَغْنِي ذَلِكَ اسْتِقَاطُ الثَّرَاثِ عَلَى الْوَقَاعِ اسْتِقَاطًا أَلْيَا، بَلْ يَفْتَضِي قِرَاءَةً نَفْذِيَّةً تُحَافِظُ عَلَى أُصُولِهِ، وَتَفْعُلُ مَقَاصِدَهُ فِي ضَوْءِ الْمُتَغَيِّرَاتِ الْمُعَاصِرَةِ، وَهُوَ مَا يَنْسَجِمُ مَعَ مَنَهِجِ الْمَقَاصِدِ الَّذِي يَرْبِطُ ثَبَاتِ الْقِيَمِ بِمُرُوءَةِ التَّطْبِيقِ.

وَيَنْطَلِقُ هَذَا الْمُبْحَثُ مِنْ فَرَضِيَّةٍ أَسَاسِيَّةٍ، وَهِيَ أَنَّ رُوحَانِيَّةَ النَّصُوفِ عِنْدَ ابْنِ عَجَبِيَّةَ تَمْتَلِكُ أَفَقًا وَاقِعِيًّا تَطْبِيقِيًّا يَتَجَاوَزُ الْبُعْدَ الْفَرْدِيَّ، لِيَشْمَلَ بِنَاءَ الْوَعْيِ الْمُجْتَمَعِيِّ، وَتَعَزِيزَ الْأَمْنِ الْأَخْلَاقِيِّ، وَإِسْهَامَ الْقِيَمِ الرُّوحِيَّةِ فِي تَحْقِيقِ التَّنْمِيَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ. وَقَدْ أَظْهَرَتِ الْمُبَاحِثُ السَّابِقَةُ أَنَّ ابْنَ عَجَبِيَّةَ أَقَامَ تَصَوُّرَهُ الصُّوفِيَّ عَلَى التَّكَامُلِ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ، وَبَيْنَ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، وَبَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ. وَيَسْعَى هَذَا الْمُبْحَثُ إِلَى بَيَانِ كَيْفِيَّةِ تَحَوُّلِ هَذِهِ الرُّؤْيَا إِلَى مَشْرُوعٍ لِلِإِصْلَاحِ الْإِنْسَانِيِّ وَالْحَضَارِيِّ، وَإِبْرَازِ قِيَمَتِهَا الْفُلْسُفِيَّةِ فِي مُوَاجَهَةِ تَحْدِيَّاتِ الْعَصْرِ.

وَسَيَتَنَاوَلُ هَذَا الْمُبْحَثُ الْمَوْضُوعَ مِنْ خِلَالِ ثَلَاثَةِ مَطَالِبَ:

- الْمُبْحَثُ الْأَوَّلُ: النَّصُوفُ وَتَهْذِيبُ الْإِنْسَانِ: مَدْخَلٌ إِلَى التَّزْكِيَةِ الرُّوحِيَّةِ.
- الْمُبْحَثُ الثَّانِي: الْمَقَارِبَةُ الْفُلْسُفِيَّةُ لِنَصُوفِ ابْنِ عَجَبِيَّةَ: مِنَ التَّزْكِيَةِ إِلَى الْعِمْرَانِ الْحَضَارِيِّ.
- الْمُبْحَثُ الثَّلَاثُ: رُوحَانِيَّةُ النَّصُوفِ فِي تَجْرِبَةِ ابْنِ عَجَبِيَّةَ وَرَهَانُ الْحَضَارَةِ الْمُعَاصِرَةِ

المبحث الأول: النَّصُوفُ وَتَهْذِيبُ الْإِنْسَانِ: مَدْخَلٌ إِلَى التَّزْكِيَةِ الرُّوحِيَّةِ:

يُمَثِّلُ النَّصُوفُ عِنْدَ ابْنِ عَجَبِيَّةَ مَشْرُوعًا إِصْلَاحِيًّا مُتَكَامِلًا، لَا يَقْتَصِرُ عَلَى تَهْذِيبِ النَّفْسِ وَتَرْكِيَةِ الرُّوحِ، بَلْ يَمْتَدُّ لِيُؤَسِّسَ رُؤْيَا حَضَارِيَّةً قَائِمَةً عَلَى بِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَإِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ.

وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ، فَإِنَّ الْبُعْدَ الْعَمَلِيَّ لِرُوحَانِيَّةِ النَّصُوفِ لَا يُمَكِّنُ فَهْمَهُ بِمَعْزَلٍ عَنِ مَقَاصِدِهِ الْإِصْلَاحِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ، لِأَنَّ غَايَتَهُ الْعُلْيَا هِيَ إِعَادَةُ صِيَاغَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى أَسَاسِ الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ وَالْأَخْلَاقِ.

وَيَنْطَلِقُ ابْنُ عَجِيْبَةٍ فِي تَصَوُّرِهِ لِلْإِصْلَاحِ مِنْ مَبْدَأٍ مَحَوْرِيٍّ، وَهُوَ أَنَّ كُلَّ تَغْيِيرٍ حَقِيقِيٍّ فِي الْوَاقِعِ يَبْدَأُ بِتَغْيِيرِ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ، فَالْإِنْسَانُ هُوَ مَحَلُّ التَّكْلِيفِ، وَمَحَوْرُ الْعُمْرَانِ، وَغَايَةُ الرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ (ابن عجيبة، 2011، ص 415). وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ رُوحَانِيَّةَ التَّصَوُّفِ لَيْسَتْ غَايَةً مُسْتَقَلَّةً، بَلْ وَسِيلَةٌ لِإِعَادَةِ تَكْوِينِ الْإِنْسَانِ عَلَى أُسُسٍ إِيْمَانِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ وَمَعْرِفِيَّةٍ، تُوَهِّلُهُ لِحَمْلِ أَمَانَةِ الْإِسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ. وَيَرَى ابْنُ عَجِيْبَةٍ أَنَّ أَعْظَمَ مَا يُعْيِقُ الْإِنْسَانَ عَنْ بُلُوغِ كَمَالِهِ هُوَ اسْتِسْلَامُهُ لِهَوَى النَّفْسِ وَتَعَلُّقُهُ بِالشَّهَوَاتِ وَالْمَظَاهِرِ الدُّنْيَوِيَّةِ. (ابن عجيبة، 2011، ص 422). لِذَلِكَ جَعَلَ الْمَجَاهِدَةَ أَسَاسًا لِلتَّرْبِيَةِ الرُّوحِيَّةِ، لَا بِمَعْنَى إِهْمَالِ الْجَسَدِ أَوْ الْحَيَاةِ، وَلَكِنْ بِمَعْنَى إِخْضَاعِ الرَّغَبَاتِ لِسُلْطَانِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ، حَتَّى يَتَحَقَّقَ التَّوَازُنُ بَيْنَ مُتَطَلِّبَاتِ الرُّوحِ وَحَاجَاتِ الْجَسَدِ.

وَيَبْضُحُ الْبُعْدُ الْفَلَسَفِيُّ فِي هَذَا التَّصَوُّرِ مِنْ خِلَالِ اعْتِبَارِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُعْرِفُ بِمَا يَمْلِكُهُ مِنْ قُوَّةٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ، بَلْ بِمَا يَبْلُغُهُ مِنْ مَقَامِ الْإِحْسَانِ وَصَفَاءِ الْقَلْبِ. فَالْقِيَمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِلْإِنْسَانِ لَا تَنْبُعُ مِنَ الْمُنْزَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَلَا مِنَ الْمَكَانَةِ الْأَقْصَادِيَّةِ، وَإِنَّمَا مِنْ مَقْدَارٍ قُرْبِهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى تَحْوِيلِ الْعِلْمِ إِلَى عَمَلٍ، وَالْمَعْرِفَةِ إِلَى سُلُوكٍ، وَالْإِيْمَانِ إِلَى وَاقِعٍ مَعِيْشٍ. (مالك بن نبي، 1986، ص 91)

وَلِهَذَا لَا يَفْصِلُ ابْنُ عَجِيْبَةٍ بَيْنَ تَرْكِيبَةِ النَّفْسِ وَتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ؛ فَالْأَخْلَاقُ لَيْسَتْ سُلُوكًا ظَاهِرِيًّا يُكْتَسَبُ بِالْمَجَامَلَةِ، بَلْ هِيَ ثَمَرَةُ التَّحَوُّلِ الْبَاطِنِ، وَأَثَرُ الْمَعْرِفَةِ الرُّوحِيَّةِ فِي الضَّمِيرِ الْإِنْسَانِيِّ. فَكُلَّمَا زَادَ الْقَلْبُ نُورًا، زَادَ السُّلُوكُ اسْتِقَامَةً، وَكُلَّمَا صَلَحَتِ السَّرِيرَةُ، انْعَكَسَ ذَلِكَ عَلَى الْعَلَاqَةِ بِاللَّهِ وَبِالنَّاسِ جَمِيعًا. (ابن عجيبة، 2011، ص 432).

وَيُؤَسِّسُ هَذَا الْمَنْهَجُ لِمَا يُمَكِّنُ تَسْمِيئَهُ بِالْإِصْلَاحِ مِنَ الدَّخَالِ، أَوْ إِعَادَةِ تَشْكِيلِ الْوَعْيِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى أُسَاسِ التَّرْكِيبِ وَالْإِحْسَانِ؛ فَلَا يَبْدَأُ التَّغْيِيرُ مِنَ الْأَنْظُمَةِ وَالْبَنَى الْخَارِجِيَّةِ، بَلْ يَبْدَأُ مِنْ إِعَادَةِ بِنَاءِ الْوَعْيِ وَالضَّمِيرِ، وَهُوَ مَا يَنْسَجِمُ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]. وَفِي ضَوْءِ هَذِهِ الْآيَةِ، يَرَى ابْنُ عَجِيْبَةٍ التَّرْكِيبَ بِاعْتِبَارِهَا مَدْخَلًا لِلتَّغْيِيرِ الْحَصَارِيِّ، لَا مُجَرَّدَ تَجَرِبَةٍ رُوحِيَّةٍ فَرْدِيَّةٍ.

وَمِنْ هُنَا، يَلْتَقِي فِكْرُهُ مَعَ الْمَنْظُورِ الْمَقَاصِدِيِّ؛ فَمَقْصُودُ الشَّرِيعَةِ لَيْسَ مُجَرَّدَ الْإِتْرَامِ بِالْأَحْكَامِ بَلْ إِنْشَاءُ إِنْسَانٍ صَالِحٍ يَمْلِكُ وَغَايَةً أَخْلَاقِيًّا، وَقُدْرَةً عَلَى تَحْمِلِ الْمَسْئُورِيَّةِ، وَاسْتِعْدَادًا لِلِإِسْهَامِ فِي إِعْمَارِ الْأَرْضِ. وَبِذَلِكَ يَتَحَوَّلُ التَّصَوُّفُ مِنْ مَنْهَجٍ لِتَرْكِيبَةِ الْفَرْدِ إِلَى نَسْقٍ مَعْرِفِيٍّ وَتَرْبُويٍّ مُتَكَامِلٍ لَتَحْقِيقِ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ. يَجْمَعُ بَيْنَ صِدْقِ الْإِيْمَانِ، وَرُقْيِ الْأَخْلَاقِ، وَفَاعِلِيَّةِ الْعَمَلِ فِي الْحَيَاةِ. (طه، 2012، ص 398)

وَقَدْ شَغَلَتْ إِشْكَالِيَّةُ الْإِنْسَانِ وَمَصِيرُهُ الْفِكْرَ الْفَلَسَفِيَّ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، بِالسُّؤَالِ عَنْ مَعْنَى الْإِنْسَانِ وَحُرِّيَّتِهِ وَهُوِيَّتِهِ، غَيْرَ أَنَّ ابْنَ عَجِيْبَةٍ يَعَالِجُهَا مِنْ دَاخِلِ الْمَرْجِعِيَّةِ الْقَرَأَنِيَّةِ جَاعِلًا التَّرْكِيبَ أَسَاسًا لَتَحْقِيقِ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ.

وَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَكْتُمِلُ إِلَّا بِاجْتِمَاعِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَالْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، وَأَنَّ الْحُرِّيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ هِيَ التَّحَرُّرُ مِنَ رِقِّ النَّفْسِ وَالْهَوَى، لَا التَّحَرُّرُ مِنَ الْقِيَمِ وَالضَّوَابِطِ. وَهُنَا تَظْهَرُ الْقِيَمَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ لِرُوحَانِيَّةِ التَّصَوُّفِ بِاعْتِبَارِهَا نَظْرِيَّةً مُتَكَامِلَةً فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ مُمَارَسَةٍ تَعْبُدِيَّةٍ أَوْ تَجَرِبَةٍ دُوقِيَّةٍ مَحْضَةٍ.

المبحث الثاني: المقاربة الفلّسفيّة لتصوّف ابن عجيبة: من التّركيية إلى العُمُرَانِ الحَضَارِيِّ:

لَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْظَرَ إِلَى فِكْرِ ابْنِ عَجِيْبَةٍ عَلَى أَنَّهُ مَجْمُوعٌ مَوَاعِظَ رُوحِيَّةٍ أَوْ إِرْشَادَاتٍ سُلُوكِيَّةٍ مُتَقَرِّقَةٍ، بَلْ يَكْشِفُ التَّحْلِيلُ الْفَلَسَفِيُّ لِلنُّصُوصِ عَنْ وُجُودِ نَسْقٍ مَعْرِفِيٍّ مُتَكَامِلٍ، تَتَرَابَطُ فِيهِ الْمَعْرِفَةُ وَالتَّرْكِيبُ وَالْإِحْسَانُ وَالْإِصْلَاحُ فِي عِلَاقَةٍ تَدْرَجِيَّةٍ، تُفْضِي فِي نَهَائِثِهَا إِلَى تَحْقِيقِ الْعُمْرَانِ الْإِنْسَانِيِّ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ رُوحَانِيَّةَ التَّصَوُّفِ عِنْدَهُ لَا تُمَثَّلُ غَايَةً مُنْعَلَقَةً عَلَى ذَاتِهَا، بَلْ تُشَكِّلُ بَنِيَّةً فِلْسَفِيَّةً تَنْقَلُ بِالْإِنْسَانِ مِنْ إِصْلَاحِ الذَّاتِ إِلَى إِصْلَاحِ الْوَاقِعِ.

ويمكننا في حدود هذه الدراسة استقراء الرؤية الصوفية لابن عجيبة في صورة نموذج معرفي - مقاصدي، ويُقَوِّمُ هَذَا النَّسْقَ عَلَى أَرْبَعَةِ مُرْتَكِزَاتٍ رِئِيسِيَّةٍ يُفْضِي كُلُّ مُرْتَكِزٍ مِنْهَا إِلَى الَّذِي يَلِيهِ، فَلَا تَنْفَصِلُ الْمَرَاجِلُ عَنْ بَعْضِهَا، بَلْ تُشَكِّلُ وَحْدَةً مَعْرِفِيَّةً وَأَخْلَاقِيَّةً مُتَكَامِلَةً.

- المرتكز المعرفي: العلم بالله والعلم بالنفس والعلم بالشرعية.
 - المرتكز التربوي: التزكية، والمجاهدة، والمراقبة، والمحاسبة.
 - المرتكز الأخلاقي: الإحسان، والرحمة والعدل والتواضع.
 - المرتكز الحضاري: إصلاح الفرد، ثم المجتمع، ثم العمران.
- وهذه المرتكزات ليست مراحل منفصلة، وإنما تشكل نسقاً فلسفياً واحداً في فكر ابن عجيبة.

أولاً: المُرْتَكِزُ الْمَعْرِفِيُّ: يَبْدَأُ مَشْرُوعُ ابْنِ عَجِيْبَةَ بِالْمَعْرِفَةِ، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ الْمَعْرِفَةُ الْمَجْرَدَةُ، بَلِ الْمَعْرِفَةُ الَّتِي تُفْضِي إِلَى الْعَمَلِ، وَتُحَرِّرُ الْإِنْسَانَ مِنَ الْجَهْلِ بِنَفْسِهِ وَبِرَبِّهِ. وَمِنْ هُنَا يُصْبِحُ الْعِلْمُ وَسِيلَةً لِلتَّحَوُّلِ الْوُجُودِيِّ، لَا غَايَةَ فِي ذَاتِهِ.

ثانياً: المُرْتَكِزُ التَّربَوِيُّ: تَنْتَقِلُ الْمَعْرِفَةُ إِلَى التَّزْكِيَةِ، وَالتَّزْكِيَةُ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةَ عَمَلِيَّةٌ دَائِمَةٌ تَقُومُ عَلَى الْمَجَاهِدَةِ وَالْمُحَاسَبَةِ وَالْمُرَاقَبَةِ، وَتَهْدَفُ إِلَى تَطْهِيرِ الْقَلْبِ، حَتَّى يَغْدُو الْإِنْسَانُ قَادِرًا عَلَى تَجَسُّدِ الْقِيَمِ الَّتِي عَلِمَهَا.

ثالثاً: المُرْتَكِزُ الْأَخْلَاقِيُّ: إِذَا اكْتَمَلَتِ التَّزْكِيَةُ، ظَهَرَتْ ثِمَارُهَا فِي السُّلُوكِ، وَهُنَا يَتَحَقَّقُ الْإِحْسَانُ الَّذِي يَعْدُهُ ابْنُ عَجِيْبَةَ ذِرْوَةَ السُّلُوكِ الْإِيمَانِيِّ. فَالْإِحْسَانُ لَيْسَ مَقَامًا رُوحِيًّا فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ تَرْجَمَةُ الْمَعْرِفَةِ إِلَى أَخْلَاقٍ وَمُعَامَلَاتٍ، وَتَحْوِيلُ الْإِيمَانِ إِلَى قُوَّةٍ مُوجَّهَةٍ لِلْحَيَاةِ.

رابعاً: المُرْتَكِزُ الْحَضَارِيُّ: لَا يَقِفُ هَذَا الْمَسَارُ عِنْدَ الْفَرْدِ، بَلْ: يَنْتَقِلُ إِلَى الْمَجْتَمَعِ؛ فَالْإِنْسَانُ الْمُرَكِّي يُصْبِحُ أَكْثَرُ قُدْرَةً عَلَى إِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَتَحْقِيقِ التَّكَاثُلِ، وَبِنَاءِ الْعُمَرَانِ. وَهُنَا يَتَّضِحُ أَنَّ رُوحَانِيَّةَ التَّصَوُّفِ لَا تُنْتِجُ الْإِنْعِزَالَ، بَلْ تُنْتِجُ الْإِنْسَانَ الْفَاعِلَ الَّذِي يُسَهِّمُ فِي إِصْلَاحِ الْحَيَاةِ.

وتكشف هذه المرتكزات عن التدرج المقاصدي لروحانية ابن عجيبة، ويتجلى فيه مسار التصوف عنده، فهو ليس مجرد ترقٍ روحي، بل حركة متدرجة ذات أثر حضاري تقوم على:

1. التخلية: تحرير القلب من العوائق.
 2. التحلية: غرس الفضائل والقيم.
 3. التجلية: انكشاف حقائق الإيمان وآثارها في الو
 4. التفعيل الحضاري: انتقال أثر التزكية إلى إصلاح الإنسان والمجتمع.
- ومن منظور فلسفي يظهر أَنَّ ابْنَ عَجِيْبَةَ يَتَجَاوَزُ التَّقْسِيْمَاتِ التَّقْلِيدِيَّةَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَبَيْنَ التَّصَوُّفِ وَالْفَقْهِ، وَبَيْنَ الدِّينِ وَالْحَيَاةِ؛ فَجَمِيعُهَا تَدْخُلُ فِي نِظَامٍ وَاحِدٍ، غَايَتُهُ تَحْقِيقُ الْإِنْسَانَ الْمُحْسِنِ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ صِحَّةِ الْإِعْتِقَادِ، وَسَلَامَةِ الْقَلْبِ، وَاسْتِقَامَةِ السُّلُوكِ، وَفَاعِلِيَّةِ الْحُضُورِ الْحَضَارِيِّ.
- وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الْإِضَافَةَ الْفَلَسَفِيَّةَ لِابْنِ عَجِيْبَةَ لَا تَكْمُنُ فِي تَقْرِيرِ مَعَانِي التَّزْكِيَةِ فَحَسْبُ، بَلْ فِي تَحْوِيلِهَا إِلَى مَنَهِجٍ مُتَكَامِلٍ لِبِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَالْمَجْتَمَعِ، وَهُوَ مَا يُمَكِّنُ تَسْمِيَّتَهُ بِالنَّمُودَجِ الْمَعْرِفِيِّ الْمَقَاصِدِيِّ لِرُوحَانِيَّةِ ابْنِ عَجِيْبَةَ.

المبحث الثالث: رُوحَانِيَّةُ التَّصَوُّفِ فِي تَجْرِبَةِ ابْنِ عَجِيْبَةَ وَرَهَانَ الْحَضَارَةِ الْمُعَاصِرَةِ:

إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ رُوحَانِيَّةِ التَّصَوُّفِ فِي فِكْرِ ابْنِ عَجِيْبَةَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْقَى حَبِيسَ الْإِطَارِ التَّأْرِيخِيِّ الَّذِي نَشَأَ فِيهِ، بَلْ يَتَعَدَّاهُ إِلَى بَحْثِ قُدْرَةِ هَذَا الْفِكْرِ عَلَى الْإِسْهَامِ فِي مُعَالَجَةِ الْإِشْكَالِيَّاتِ الْفَلَسَفِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ الَّتِي يَعِيشُهَا الْإِنْسَانُ الْمُعَاصِرُ.

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقِيَمَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِلثَّرَاثِ لَا تُقَاسُ بِقَدَمِهِ، بَلْ بِمَا يَمْتَلِكُهُ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى إِنتَاجِ مَعْنَى جَدِيدٍ، وَتَقْدِيمِ رُؤْيَا شَسْهُمٍ فِي فَهْمِ الْوَاقِعِ وَتَوْجِيهِهِ (ابن نبي، 1986، ص93). وَقَدْ أَفْرَزَ الْعَالَمُ الْمُعَاصِرُ جُمْلَةً مِنَ الْأَرْمَاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالْقِيَمِيَّةِ، لَعَلَّ أَبْرَزَهَا تَصَحُّمُ التَّرْعَةِ الْمَادِيَّةِ، وَتَرَاجُعُ الْبُعْدِ الرُّوحِيِّ، وَتَفَكُّكُ الْمَرْجِعِيَّاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَاتِّسَاعُ دَائِرَةِ الْإِغْتِرَابِ الْإِنْسَانِيِّ.

وَهِيَ أَرَمَاتٌ لَا يَكْفِي فِي مُوَاجَهَتِهَا النَّقْدُ النَّقْيُ أَوْ الْإِزْدِهَارُ الْاِقْتِصَادِيُّ، لِأَنَّهَا تَرْتَبِطُ فِي جَوْهَرِهَا بِفُقْدَانِ الْمَعْنَى وَاصْطِرَابِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَذَاتِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْآخَرِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ خَالِقِهِ. وَفِي هَذَا الرِّيقِ، يُمَكِّنُ أَنْ تُفْرَأَ رُوحَانِيَّةُ ابْنِ عَجِيْبَةَ بِاعْتِبَارِهَا مَشْرُوعًا فَلَسَفِيًّا لِإِعَادَةِ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ عَلَى أَسَاسِ الْمَعْنَى، لَا عَلَى أَسَاسِ الْمُنْفَعَةِ فَقَطْ.

فَالْإِنْسَانُ عِنْدَهُ لَيْسَ فَرْدًا يَسْعَى إِلَى إِشْبَاعِ رَغَبَاتِهِ، بَلْ هُوَ كَائِنٌ مُكَلَّفٌ، يَسْتَمِدُّ هُوِيَّتَهُ مِنْ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ، وَيَسْتَمِدُّ كَرَامَتَهُ مِنْ قِيَمِ الْإِحْسَانِ وَالتَّقْوَى، وَيَسْتَمِدُّ رِسَالَتَهُ مِنْ خِلَافَتِهِ فِي الْأَرْضِ.

وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ النَّصُوفَ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةَ لَا يُمَثِّلُ انْسِحَابًا مِنَ الْوَاقِعِ، بَلْ يُمَثِّلُ إِعَادَةَ لِبْنَاءِ الْوَعْيِ الَّذِي يُنْتِجُ وَاقِعًا جَدِيدًا. وَهُنَا تَطْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَ الرُّوِيَةِ الصُّوفِيَّةِ، وَبَيْنَ التَّصَوُّرَاتِ الَّتِي اخْتَرَلَتْ التَّصَرُّفُ فِي التَّجَرِبَةِ الدَّائِيَّةِ الْمُغْلَقَةِ؛ فَابْنُ عَجِيْبَةَ يَرَى أَنَّ صِدْقَ الْمَعْرِفَةِ يُقَاسُ بِأَثَرِهَا فِي الْخُلُقِ وَالْعَمَلِ، وَأَنَّ كَمَالَ السَّالِكِ لَا يَكْتَمِلُ إِلَّا بِحَسَنِ تَعَامُلِهِ مَعَ النَّاسِ، وَأَدَائِهِ لِحُقُوقِهِمْ، وَسَعْيِهِ فِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمْ. (ابن عجيبة، 2002، ص311)

وَيَكْشِفُ التَّحْلِيلُ الْمَقَاصِدِيَّ لِهَذِهِ الرُّوِيَةِ أَنَّ رُوحَانِيَّةَ النَّصُوفِ لَا تَنْفَصِلُ عَنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، بَلْ تُمَثِّلُ بَعْدَهَا التَّرْبُويَّ وَالْأَخْلَاقِيَّ؛ فَحِفْظُ الدِّينِ لَا يَتَحَقَّقُ بِالْعِبَادَاتِ فَقَطْ وَإِنَّمَا بِإِحْيَاءِ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ، وَحِفْظُ الْعَقْلِ لَا يَفْتَصِرُ عَلَى صِيَانَتِهِ مِنَ الْمُفْسِدَاتِ، بَلْ يَشْمَلُ تَحْرِيرَهُ مِنْ أَسْرِ الْعَقْلَةِ وَالْأَنَانِيَّةِ، وَحِفْظُ النَّفْسِ بِنِدَاءِ بَرَكَاتِهَا قَبْلَ حِمَايَةِ جَسَدِهَا، وَحِفْظُ الْمَالِ وَالنَّسْلِ يَقُومُ عَلَى إِزْسَاءِ الْأَمَانَةِ وَالْعَدْلِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ. وَبِذَلِكَ تُصْبِحُ التَّرَكِّيَّةُ الْمَحْوَرُ الَّذِي تَلْتَقِي عِنْدَهُ الْمَقَاصِدُ الشَّرْعِيَّةُ كُلُّهَا. (الشاطبي، 1997، ص367)

وَمِنَ الْمَنْظُورِ الْفَلَسَفِيِّ، تَكْشِفُ نُصُوصُ ابْنِ عَجِيْبَةَ عَنْ نَقْدٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ لِلنَّزْعَةِ الْمَادِيَّةِ الَّتِي اخْتَرَلَتْ الْإِنْسَانَ فِي أَبْعَادِهِ الْبَيُولُوجِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ؛ فَهُوَ يُؤَسِّسُ لِأَنْطُولُوجِيَا إِيْمَانِيَّةٍ تَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُفْهَمُ إِلَّا مِنْ خِلَالِ عِلَاقَتِهِ بِالْمُطْلَقِ، وَأَنَّ الْفِيَمَ لَيْسَتْ عَرَفًا اجْتِمَاعِيًّا مُتَغَيِّرًا، بَلْ هِيَ امْتِدَادٌ لِلْحَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي يَسْتَمِدُّ مِنْهَا الْإِنْسَانُ وَجُودَهُ وَمَعْنَاهُ.

وَلِذَلِكَ، تَرَى هَذِهِ الدِّرَاسَةُ أَنَّ الْإِسْهَامَ الْفَلَسَفِيَّ الْأَكْبَرَ لِابْنِ عَجِيْبَةَ يَكْمُنُ فِي إِعَادَةِ الرِّبْطِ بَيْنَ التَّرَكِّيَّةِ وَالْعُمُرَانِ؛ فَلَا عُمُرَانَ مِنْ غَيْرِ إِنْسَانٍ مُزَكَّى، وَلَا إِصْلَاحَ لِلْمُجْتَمَعِ مِنْ غَيْرِ إِصْلَاحِ الْفَرْدِ، وَلَا اسْتِقْرَارَ لِلْحَضَارَةِ مِنْ غَيْرِ مَنْظُومَةٍ قِيَمِيَّةٍ تُوجِّهُ الْعِلْمَ وَالْقُوَّةَ وَالْاِقْتِصَادَ. وَبِهَذَا يَتَحَوَّلُ النَّصُوفُ مِنْ خُطَابِ رُوحِيٍّ إِلَى نَظَرِيَّةٍ فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَالْحَضَارَةِ، وَهُوَ مَا يُمَثِّلُ - فِي تَقْدِيرِ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ - أَحَدَ أَهَمِّ مَوَاطِنِ الْجِدَّةِ فِي فِكْرِ ابْنِ عَجِيْبَةَ وَقَابِلِيَّتِهِ لِلْجَوَارِ مَعَ الْفِكْرِ الْفَلَسَفِيِّ الْمُعَاصِرِ.

وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ أَنَّ رُوحَانِيَّةَ النَّصُوفِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةَ لَا تُثَمِّلُ تَجَرِبَةً دُوفِيَّةً مَحْضَةً، وَلَا مِنْهَجًا تَعْبُديًّا مَقْصُورًا عَلَى تَهْذِيبِ النَّفْسِ، بَلْ تُشَكِّلُ نَسَقًا فَلَسَفِيًّا وَتَرْبُويًّا مُتَكَامِلًا، يَرْبِطُ بَيْنَ التَّرَكِّيَّةِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَبَيْنَ الْإِحْسَانِ وَالْعَمَلِ، وَبَيْنَ إِصْلَاحِ الْفَرْدِ وَبِنَاءِ الْمُجْتَمَعِ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ الْبُعْدَ الْعَمَلِيَّ لِلنَّصُوفِ فِي فِكْرِهِ لَا يَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ التَّرَبُّبَةِ الرُّوحِيَّةِ، بَلْ يَمْتَدُّ لِيُؤَسِّسَ رُويَةً حَضَارِيَّةً قَائِمَةً عَلَى الْقِيَمِ وَالْمَقَاصِدِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ.

وَيَكْشِفُ التَّحْلِيلُ الْفَلَسَفِيَّ لِتَجَرِبَتِهِ أَنَّ ابْنَ عَجِيْبَةَ يَقْدِمُ تَصَوُّرًا مُتَمَيِّزًا لِلْإِنْسَانِ، لَا يَعْرِفُهُ بِقُدْرَاتِهِ الْعَقْلِيَّةِ أَوْ بِإِنْجَازَاتِهِ الْمَادِيَّةِ، وَإِنَّمَا بِمَدَى تَحَقُّقِهِ بِمَقَامِ الْإِحْسَانِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى تَرْجَمَةِ الْمَعْرِفَةِ إِلَى سُلُوكٍ، وَالْإِيمَانِ إِلَى عَمَلٍ، وَالْقِيَمِ إِلَى مُمَارَسَةٍ يَوْمِيَّةٍ تُنْمِرُ الْعَدْلَ وَالرَّحْمَةَ وَالتَّكَافُلَ. كَمَا تَكْشِفُ الْمُقَارَبَةُ الْمَقَاصِدِيَّةُ أَنَّ رُوحَانِيَّةَ ابْنِ عَجِيْبَةَ تُشَكِّلُ الْبُعْدَ التَّرْبُويَّ الْعَمِيقَ لِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، إِذْ تَجْعَلُ مِنْ تَرْكِيَّةِ النَّفْسِ الْمَدْخَلَ الْحَقِيقِيَّ لِحِفْظِ الدِّينِ، وَتَقْوِيمِ الْعَقْلِ، وَصِيَانَةِ النَّفْسِ، وَإِزْسَاءِ الْعَدَالَةِ وَالْأَمَانَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ وَبِذَلِكَ تَنْتَقِلُ مَقَاصِدُ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْمُسْتَوَى النَّظَرِيِّ إِلَى مُسْتَوَى الْمُمَارَسَةِ الْوَاقِعِيَّةِ.

وَتُقَدِّمُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ - فِي حُدُودِ مَا أَفْضَى إِلَيْهِ تَحْلِيلُ النُّصُوصِ - قِرَاءَةً فَلَسَفِيَّةً لِفِكْرِ ابْنِ عَجِيْبَةَ، تُبْرِزُ أَنَّ مَشْرُوعَهُ الصُّوفِيَّ يَقُومُ عَلَى تَدْرُجٍ مَعْرِفِيٍّ وَمَقَاصِدِيٍّ بِنِدَاءٍ بِالْمَعْرِفَةِ، وَيَمُرُّ بِالتَّرَكِّيَّةِ وَالْإِحْسَانِ، وَيَنْتَهِي بِالْإِصْلَاحِ وَالْعُمُرَانِ. وَيُمَثِّلُ هَذَا التَّدْرُجُ - فِي تَقْدِيرِ الْبَاحِثِ - أَحَدَ أَبْرَزِ الْمَعَالِمِ الْفَلَسَفِيَّةِ لِلْبُعْدِ الْعَمَلِيِّ لِرُوحَانِيَّةِ

التَّصَوُّفِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ، وَإِخْدَى الْإِضَافَاتِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُسَهِّمَ فِي تَوْسِيعِ آفَاقِ الدِّرَاسَاتِ الْفَلَسَفِيَّةِ وَالصُّوْفِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ.

وَبِذَلِكَ، يَتَبَيَّنُ أَنَّ فِكْرَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ لَا يَنْتَمِي إِلَى الْمَاضِي بِاعْتِبَارِهِ ثَرَاتًا يُسْتَحْضَرُ فَقَطْ بَلْ يَمْتَلِكُ قُدْرَةً عَلَى الدُّخُولِ فِي حَوَارِ مَعَ الْقَضَايَا الْفَلَسَفِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ، مِنْ خِلَالِ مَا يَقْدِّمُهُ مِنْ رُؤْيَا تُعِيدُ الِاعْتِبَارَ لِلْإِنْسَانِ بِاعْتِبَارِهِ مَحَوْرَ الْإِصْلَاحِ، وَلِلْقِيَمِ بِاعْتِبَارِهَا أَسَاسَ الْعُمُرَانِ وَلِلْإِحْسَانِ بِاعْتِبَارِهِ الْعَايَةِ الْعُلْيَا الَّتِي تُلْتَفِّي عِنْدَهَا رُوحَانِيَّةُ التَّصَوُّفِ وَمَقَاصِدُ الشَّرِيعَةِ وَفَلَسَفَةُ الْحَضَارَةِ.

خُلَاصَةُ الْفَصْلِ الثَّالِثِ:

انْتَهَى هَذَا الْمَبْحَثُ إِلَى أَنَّ رُوحَانِيَّةَ التَّصَوُّفِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ تُمَثِّلُ مَشْرُوعًا فَلَسَفِيًّا وَتَرْبَوِيًّا وَحَضَارِيًّا مُتَكَامِلًا، يَتَجَاوَزُ حُدُودَ التَّجَرِبَةِ الرُّوحِيَّةِ الْفَرْدِيَّةِ لِيُؤَسِّسَ رُؤْيَا شَامِلَةً لِبِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَإِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ.

فَقَدْ كَشَفَ التَّحْلِيلُ أَنَّ التَّرَكِّيَّةَ لَيْسَتْ غَايَةً مُسْتَقَلَّةً، بَلْ هِيَ مَدْخَلٌ إِلَى تَحْقِيقِ الْإِحْسَانِ وَالِإِحْسَانُ مَدْخَلٌ إِلَى تَكْوِينِ الْإِنْسَانِ الْمُصْلِحِ، الَّذِي يَنْعَكِسُ صِلَاحُهُ عَلَى الْوَاقِعِ الْأَخْلَاقِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ وَالْحَضَارِيِّ.

وَقَدْ بَيَّنَّتِ الدِّرَاسَةُ أَنَّ ابْنَ عَجِيْبَةٍ أَقَامَ مَشْرُوعَهُ الصُّوْفِيَّ عَلَى تَكَامُلِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعَمَلِ، وَالشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ، وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَالْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، فَلَمْ يَرِ فِي التَّصَوُّفِ انْفِصَالًا عَنِ الْحَيَاةِ، وَلَا انْقِطَاعًا عَنِ الْوَاقِعِ، بَلْ جَعَلَهُ مِنْهَجًا لِإِعَادَةِ تَوْجِيهِ الْإِنْسَانِ نَحْوَ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَقِيَمِهَا الْكُلِّيَّةِ، وَإِعَادَةِ بِنَاءِ شَخْصِيَّتِهِ عَلَى أُسُسِ الْعُبُودِيَّةِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ وَالِإِحْسَانِ.

وَفِي ضَوْءِ الْمُقَارَنَةِ الْمَقَاصِدِيَّةِ، تَبَيَّنَ أَنَّ رُوحَانِيَّةَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ تُعَدُّ الْبُعْدَ التَّرَبُّوِيَّ الْعَمِيقَ لِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ؛ فَهِيَ تَحْقِيقُ حِفْظِ الدِّينِ مِنْ خِلَالِ تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ، وَحِفْظِ الْعَقْلِ بِتَحْرِيرِهِ مِنَ الْغَفْلَةِ وَالْهَوَى، وَحِفْظِ النَّفْسِ بِتَهْذِيبِهَا، وَحِفْظِ الْمُجْتَمَعِ بِتَرْسِيخِ قِيَمِ الْعَدْلِ وَالْأَمَانَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَبِذَلِكَ تَتَحَوَّلُ التَّرَكِّيَّةُ إِلَى قُوَّةٍ مُوجَّهَةٍ لِلْفِعْلِ الْحَضَارِيِّ، لَا إِلَى مُمَارَسَةِ رُوحِيَّةٍ مَعْرُوَلَةٍ.

وَتَوَصَّلَتِ الدِّرَاسَةُ - فِي حُدُودِ مَا سَمَحَ بِهِ تَحْلِيلُ النُّصُوصِ وَمُقَارَنَتُهَا - إِلَى أَنَّهُ يُمَكِّنُ إِِعَادَةَ بِنَاءِ فِكْرِ ابْنِ عَجِيْبَةٍ فِي صُورَةٍ نُمُودَجٍ مَعْرِفِيٍّ مَقَاصِدِيٍّ يَقُومُ عَلَى تَرَابُطِ الْمَعْرِفَةِ، وَالتَّرَكِّيَّةِ، وَالِإِحْسَانِ، وَالِإِصْلَاحِ وَالْعُمُرَانِ. وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، يَتَأَكَّدُ أَنَّ ابْنَ عَجِيْبَةٍ لَمْ يَقْدِّمِ التَّصَوُّفَ بَدِيلًا عَنِ الشَّرِيعَةِ، وَلَا مَسْلَكًا لِلانْعِرَالِ عَنِ الْوَاقِعِ، بَلْ قَدَّمَهُ بِوَصْفِهِ مِنْهَجًا لِتَحْقِيقِ كَمَالِ الْإِنْسَانِ، وَإِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ، وَإِقَامَةِ الْعُمُرَانِ عَلَى أُسُسِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالِإِحْسَانِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ، وَهُوَ مَا يَجْعَلُ فِكْرَهُ قَادِرًا عَلَى الْإِسْهَامِ فِي الْحَوَارِ الْفَلَسَفِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ الْمُعَاصِرِ، وَيُؤَكِّدُ جِدَّةَ الْبُعْدِ الْعَمَلِيِّ لِرُوحَانِيَّةِ التَّصَوُّفِ فِي مَشْرُوعِهِ الْفِكْرِيِّ.

خَاتَمَةُ الْبَحْثِ:

يُمْكِنُ الْقَوْلُ أَنَّ تَحْلِيلَ الْبُعْدِ الْعَمَلِيِّ لِرُوحَانِيَّةِ التَّصَوُّفِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ، يَكْشِفُ أَنَّ مَشْرُوعَهُ الْفِكْرِيَّ لَا يُمَكِّنُ اخْتِرَالَهُ فِي كَوْنِهِ خَطَأًا وَغُطْيًا أَوْ تَرْبَوِيًّا مَحْضًا، بَلْ يَنْدَرِجُ ضِمْنَ نَسَقِ فَلَسَفِيٍّ وَمَقَاصِدِيٍّ مُتَكَامِلٍ، يُعِيدُ صِيَاعَةَ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَرَبِّهِ، وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ وَذَاتِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُجْتَمَعِ، عَلَى أَسَاسِ التَّرَكِّيَّةِ وَالِإِحْسَانِ وَالْمَسْئُولِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ.

وَقَدْ انْطَلَقَتِ الدِّرَاسَةُ مِنْ إِشْكَالِيَّةٍ رَيْبِيَّةٍ تَمَثَّلَتْ فِي بَيَانِ مَدَى قُدْرَةِ رُوحَانِيَّةِ التَّصَوُّفِ عِنْدَ ابْنِ عَجِيْبَةٍ عَلَى تَجَاوُزِ الْبُعْدِ الدُّوْقِيِّ إِلَى بِنَاءِ مَشْرُوعٍ عَمَلِيٍّ ذِي أبعادٍ فَلَسَفِيَّةٍ وَحَضَارِيَّةٍ، وَقَدْ أَظْهَرَ التَّحْلِيلُ أَنَّ التَّصَوُّفَ عِنْدَهُ لَا يَنْفَصِلُ عَنِ الشَّرِيعَةِ، وَلَا يَنْعَزِلُ عَنِ الْوَاقِعِ، بَلْ يُشْكَلُ الْبُعْدَ الدَّخْلِيَّ الَّذِي يُمَكِّنُ الْإِنْسَانَ مِنْ تَحْقِيقِ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى مُسْتَوَى الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ.

وَكَشَفَتِ الدِّرَاسَةُ أَنَّ ابْنَ عَجِيْبَةٍ أَقَامَ مَشْرُوعَهُ عَلَى ثَلَاثَةِ أُسُسٍ مُتَرَابِطَةٍ: أَوَّلُهَا الْمَعْرِفَةُ الَّتِي تُؤَسِّسُ لِلْوَعْيِ، وَثَانِيهَا التَّرَكِّيَّةُ الَّتِي تُحَوِّلُ الْمَعْرِفَةَ إِلَى تَغْيِيرٍ بَاطِنِيٍّ، وَثَالِثُهَا الْإِحْسَانُ الَّذِي يُتَرَجَّمُ ذَلِكَ التَّغْيِيرُ إِلَى سُلُوكٍ

وَإِصْلَاحَ وَعُمْرَانَ وَمِنْ هُنَا، فَإِنَّ الْبُعْدَ الْعَمَلِيَّ لِرُوحَانِيَّتِهِ لَيْسَ مَرَحَلَةً تَالِيَةً لِلتَّصَوُّفِ، بَلْ هُوَ ثَمَرَتُهُ الْحَقِيقِيَّةُ وَغَايَتُهُ الْمَقْصُودَةُ.

وَتَوَصَّلَتِ الدِّرَاسَةُ إِلَى أَنَّهُ يُمَكِّنُ - فِي حُدُودِ مَا أَفْضَى إِلَيْهِ تَحْلِيلُ النُّصُوصِ - إِعَادَةَ بِنَاءِ فِكْرِ ابْنِ عَجِيبَةَ فِي صُورَةِ نَمُودَجٍ مَعْرِفِيٍّ مَقَاصِدِيٍّ، يَقُومُ عَلَى التَّنَدُّجِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ إِلَى التَّزْكِيَةِ، وَمِنَ التَّزْكِيَةِ إِلَى الْإِحْسَانِ، وَمِنَ الْإِحْسَانِ إِلَى الْإِصْلَاحِ، ثُمَّ إِلَى الْعُمْرَانِ الْحَضَارِيِّ. وَيُعَدُّ هَذَا النَّمُودَجُ إِطَارًا تَحْلِيلِيًّا يُسَهِّمُ فِي فَهْمِ الْبُنْيَةِ الدَّاخِلِيَّةِ لِفِكْرِ ابْنِ عَجِيبَةَ، وَيُبْرِزُ تَرَابُطَ عَنَاصِرِهِ الْمَعْرِفِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ.

إذا كانت الحضارة تُقاس اليوم بقدرتها على إنتاج المعرفة والتقنية، فإن فكر ابن عجيبة يدعونا إلى التساؤل هل يمكن أن تقوم حضارة إنسانية مستقرة من غير بناء رוחي وأخلاقي يسبق البناء المادي؟

وجدير بالذكر أنه يبقى فكر ابن عجيبة شاهداً على أَنَّ النّهضة الحضاريّة لا تُبنى بالمعرفة المجردة، ولا بالتقدم المادي وحده، بل تبدأ من بناء الإنسان، وتركيزه ضميره، وترسيخ قيم الإحسان والعدل والرحمة. ومن هنا تكمن القيمة الفلسفية والمعاصرة لروحانيّة التصوّف عند ابن عجيبة باعتبارها رؤية متكاملة تُسهم في تجديد الفكر الإسلامي، وتقدم إسهاماً أصيلاً في الحوار الفلسفي المعاصر حول الإنسان والأخلاق والحضارة.

نتائج البحث

في ضوء ما أسفر عنه التحليل الفلسفي والمقاصدي لروحانيّة التصوّف عند ابن عجيبة، توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

1. أثبتت الدراسة أَنَّ رُوحَانِيَّةَ التَّصَوُّفِ عند ابن عَجِيبَةَ تُشَكِّلُ نَسَقًا فِكْرِيًّا مُتَكَامِلًا، يَقُومُ عَلَى التَّلَازُمِ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالْإِحْسَانِ وَالْعَمَلِ، وَلَيْسَتْ مُجَرَّدَ مُمَازَسَةٍ ذُوقِيَّةٍ أَوْ رِيَاضَةٍ رُوحِيَّةٍ مَعْرُولَةٍ عَنِ الْوَاقِعِ.
2. بَيَّنَّتِ الدِّرَاسَةُ أَنَّ الْبُعْدَ الْعَمَلِيَّ يُمَثِّلُ الْمَحْوَرَ الْأَسَاسِيَّ فِي مَشْرُوعِ ابْنِ عَجِيبَةَ، إِذْ تَتَحَوَّلُ التَّزْكِيَةُ مِنْ تَجَرِبَةٍ بَاطِنِيَّةٍ إِلَى مَنَهَجٍ لِإِصْلَاحِ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ.
3. أَكَّدَتِ الدِّرَاسَةُ أَنَّ التَّصَوُّفَ عند ابن عَجِيبَةَ يَقُومُ عَلَى التَّكَامُلِ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ، وَلَا يَقْبَلُ الْفَصْلَ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالسُّلُوكِ، أَوْ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ.
4. أَظْهَرَ التَّحْلِيلُ الْمَقَاصِدِيَّ أَنَّ رُوحَانِيَّةَ ابْنِ عَجِيبَةَ تُمَثِّلُ الْبُعْدَ التَّرْبَوِيَّ الْعَمِيقَ لِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، وَأَنَّ التَّزْكِيَةَ تُعَدُّ الْمَدْخَلَ الْحَقِيقِيَّ لِتَحْقِيقِ الْمَقَاصِدِ الْكُلِّيَّةِ.
5. كَشَفَتِ الْمُقَارَنَةُ الْفَلَسَفِيَّةُ أَنَّ ابْنَ عَجِيبَةَ يَتَمَيَّزُ بِتَرْكِيزِهِ عَلَى الْإِصْلَاحِ الْعَمَلِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ، دُونَ الْوُقُوفِ عِنْدَ الْمَعَالِجَاتِ الْمِيثَاقِيَّةِ الْمَجْرَدَةِ.
6. بَرَزَتِ الدِّرَاسَةُ عَلَى أَنَّ مَقَامَ الْإِحْسَانِ هُوَ الْحَلَقَةُ الْمَرْكَزِيَّةُ الَّتِي تَرْتَبُطُ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالسُّلُوكِ، وَبَيْنَ التَّزْكِيَةِ وَالْعُمْرَانِ، وَبَيْنَ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ.
7. أَظْهَرَ الْبَحْثُ أَنَّ فِكْرَ ابْنِ عَجِيبَةَ يَمْتَلِكُ قُدْرَةً عَلَى الْحَوَارِ مَعَ الْقَضَايَا الْفَلَسَفِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ، وَخَاصَّةً مَا يَتَّصِلُ بِأَرْزَمَةِ الْمَعْنَى، وَالْإِغْتِرَابِ الرُّوحِيِّ، وَتَرَاوُجِ الْقِيَمِ.
8. تَوَصَّلَتِ الدِّرَاسَةُ - فِي حُدُودِ مَا أَتَاحَتْهُ النُّصُوصُ الْمُحَلَّلَةُ - إِلَى إِمْكَانِ إِعَادَةِ بِنَاءِ فِكْرِ ابْنِ عَجِيبَةَ فِي صُورَةِ نَمُودَجٍ مَعْرِفِيٍّ مَقَاصِدِيٍّ يَقُومُ عَلَى تَرَابُطِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالْإِحْسَانِ وَالْإِصْلَاحِ وَالْعُمْرَانِ.
9. أَكَّدَتِ الدِّرَاسَةُ أَنَّ الْبُعْدَ الْعَمَلِيَّ لِرُوحَانِيَّةِ التَّصَوُّفِ يُمَثِّلُ أَسَاسًا لِبِنَاءِ الْإِنْسَانِ الْمُحْسِنِ، الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ صِحَّةِ الْإِعْتِقَادِ، وَرُقِيِّ الْأَخْلَاقِ، وَالْمُسَاهَمَةِ الْإِيجَابِيَّةِ فِي الْحَيَاةِ.
10. انْتَهَى الْبَحْثُ إِلَى أَنَّ الْإِصْلَاحَ الْحَضَارِيَّ فِي فِكْرِ ابْنِ عَجِيبَةَ يَبْدَأُ بِإِصْلَاحِ الْإِنْسَانِ، وَأَنَّ التَّزْكِيَةَ تُشَكِّلُ الْأَسَاسَ الَّذِي تُبْنَى عَلَيْهِ الْمَنْظُومَةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ.
11. أَثْبَتَتِ الدِّرَاسَةُ أَنَّ رُوحَانِيَّةَ ابْنِ عَجِيبَةَ تَقُومُ عَلَى فِلْسَفَةِ التَّكَامُلِ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ، وَلَا عَلَى الْفَصْلِ بَيْنَهُمَا.

12. كشفت الدراسة أن التركيزية عند ابن عجيبة ليست غاية فردية وإنما مدخل إلى إصلاح المجتمع وتحقيق العمران.
13. بينت الدراسة أن التركيزية تمثل الحلقة المركزية التي تربط المعرفة بالسلوك.
14. توصلت الدراسة إلى أن فكر ابن عجيبة يقدم نموذجاً فلسفياً يمكن توظيفه في معالجة أزمت الإنسان المعاصر، مثل الاغتراب الروحي، وفقدان المعنى، وتراجع المنظومة القيمية.
15. أبرزت الدراسة أن قراءة فكر ابن عجيبة في ضوء المقاصد تكشف عن بعد حضاري لم يحظ بالعناية الكافية في الدراسات السابقة.

التوصيات:

في ضوء النتائج التي انتهت إليها الدراسة، يُوصي الباحث بما آتي:

1. العناية بالتراث الصوفي السني، وخاصة مؤلفات ابن عجيبة، من خلال دراسات فلسفية ومقاصدية معمقة.
2. إعادة قراءة التصوف الإسلامي باعتباره مشروعاً للإصلاح الإنساني والحضاري، لا باعتباره تجربة روحية معزولة.
3. إدماج البعد الأخلاقي والروحي في البرامج التربوية والتعليمية؛ لتعزيز قيم الإحسان والمسؤولية والمواطنة.
4. تشجيع البحث العلمي الذي يربط بين مقاصد الشريعة والتصوف، وبين الفكر الإسلامي والقضايا الفلسفية المعاصرة.
5. إنجاز دراسات مقارنة بين ابن عجيبة وأعلام الفلسفة الإسلامية والمفكرين المعاصرين؛ لإبراز خصوصية مشروعه الفكري.
6. توجيه الدراسات المستقبلية نحو بحث دور روحانية التصوف في معالجة أزمت الإنسان المعاصر، كالاغتراب، والغضب، وتفكك القيم، وأزمة الهوية.
7. تحقيق مؤلفات ابن عجيبة التي لم تحظ بدراسة وافية، وإعادة نشرها بطبعات علمية مُحَقَّقة؛ لتوسيع دائرة الاستفادة منها.
8. تفعيل الحوار بين التراث الصوفي والفكر الفلسفي المعاصر؛ بما يسهم في بناء رؤية إنسانية متوازنة، توفق بين التقدم المعرفي والارتقاء الأخلاقي.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصدر الأساسي:

- * القرآن الكريم، رواية قالون عن نافع، مصحف الأوقاف الليبية، دار الأرقم طرابلس ليبيا
- [1] - النيسابوري، (مسلم)، (1955)، صحيح مسلم "كتاب الإيمان" - حديث رقم 8، دار احياء الكتب العربية، القاهرة
- ثانياً: مؤلفات ابن عجيبة:
- [2] ابن عجيبة، (أحمد)، (1999)، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد. تحقيق أحمد عبد الله القرشي رسلان القاهرة: الناشر الدكتور حسن عباس زكي.
- [3] ابن عجيبة (أحمد)، (1985)، إفاظ الهمم في شرح الحكم. تحقيق: محمد أحمد حسب الله. القاهرة: دار المعارف.
- [4] ابن عجيبة، (أحمد)، (2004)، معراج الشؤف إلى حقائق التصوف، ويليه كشف النقاب عن سر لب الأبواب وتحقيق عبد المجيد خيالي. ط1. مركز التراث الثقافي المغربي، المغرب، الدار البيضاء.
- [5] ابن عجيبة، (أحمد)، (2007)، الجواهر العجيبة، تحقيق: عبدالسلام الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- المصادر الصوفية:
- [6] الغزالي، (أبو حامد)، (د.ت)، (إحياء علوم الدين)، دار المعرفة، بيروت، ج2.
- [7] القسيري، (عبد الكريم)، (1994)، الرسالة القسيرية. تحقيق: عبد الحليم محمود القاهرة، دار المعارف

[8] المحاسبي، (الحارث)، (1984)، آداب النفوس، دار الجيل، بيروت، لبنان.
مَصَادِرُ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَأَصُولِ الْفِقْهِ:

[9] ابنُ عاشور، (مَحْمَدُ الطَّاهِرُ)، (2006)، مَقَاصِدُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، دار سحنون للنشر، تونس
[10] الشاطبي، (أبو إسحق)، (1997)، الْمَوَاقِفُ. تَحْقِيقُ: أَبِي عُبَيْدَةَ سَلْمَانَ، دَارُ ابْنِ عَفَّانَ، السعودية
سَادِسًا: الْمَرَاجِعُ الْحَدِيثَةُ فِي الْفَلَسَفَةِ وَالتَّصَوُّفِ:

- [11] ابنُ نَبِيِّ، (مَالِكُ)، (1986)، - شُرُوطُ النَّهْضَةِ. تَرْجَمَهُ: عَبْدُ الصَّبُّورِ شَاهِينٍ وَعُمَرُ كَامِلٌ مِسْقَاوِي دِمَشْقُ: دَارُ الْفِكْرِ.
[12] أرسطو، (1949)، كتاب النفس، ترجمة: أحمد فؤاد الأهواني دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
[13] أفلاطون، (1985)، جمهورية افلاطون محاوره فيدون، ترجمة: فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
[14] طه (عَبْدُ الرَّحْمَنِ)، (2000)، سَوَالُ الْأَخْلَاقِ الدَّارُ الْبَيْضَاءُ الْمَرْكَزُ الثَّقَافِيُّ الْعَرَبِيُّ.
[15] طه، (عَبْدُ الرَّحْمَنِ)، (2012)، رُوحُ الدِّينِ: مِنْ ضَيْقِ الْعُلَمَائِيَّةِ إِلَى سَعَةِ الْأَنْتِمَائِيَّةِ. الدَّارُ الْبَيْضَاءُ: الْمَرْكَزُ الثَّقَافِيُّ الْعَرَبِيُّ.
[16] عبد القادر، (محمود)، (1966)، الفلسفة الصوفية في الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة.
[17] عفيفي، (أبو العلا)، (1963)، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، دار المعارف، القاهرة.

Disclaimer/Publisher's Note: The statements, opinions, and data contained in all publications are solely those of the individual author(s) and contributor(s) and not of **JSHD** and/or the editor(s). **JSHD** and/or the editor(s) disclaim responsibility for any injury to people or property resulting from any ideas, methods, instructions, or products referred to in the content.